



الفصل الأول: سيرة الجاحظ ومنهجه في كتابة الرواية التاريخية

أولاً: حياته

- مولده ونسبه
- شيوخه وأثرهم في اتجاهاته الفكرية
- الجاحظ وثقافته الموسوعية
- الاعتزال وأثره في تكوين الجاحظ الثقافي
- علاقته بالسلطة العباسية
- مؤلفاته
- مرضه ووفاته

ثانياً: منهج الجاحظ ودوره في الكتابة التاريخية

مولده نشأته

إن شخصية الجاحظ كانت مثار اهتمام الكثير من الباحثين، وخاصة الباحثين الأكاديميين، وقد تناولت العديد من الدراسات تفاصيل حياة الجاحظ[١]، وبالتالي ستستعرض هذه الدراسة المحطات الرئيسية والمهمة من حياته. هو عمرو بن بحر بن محبوب[٢] الكناني بالولاء الليثي[٣] البصري المكنى بأبي عثمان، وأشتهر بلقب الجاحظ[٤]، وهو مولى أبي القلمس عمرو بن قلع الكناني[٥].

وعلى الرغم أنه مولى إلا أن انتماؤه إلى العروبة واضحٌ في كتاباته خاصةً ما يتعلق برده على الشعوبية وتفنيد حججهم وادعاءاتهم[٦]. وإن يكن الجاحظ من الموالي فإن فكره وميوله عربية خالصة، وقد حدث بعد الفتوحات الإسلامية وازهار الحضارة الإسلامية أن دخلت جماعات كثيرة في إطار الدولة العباسية مما أدى إلى تغيير معيار العروبة ، فأصبحت الثقافة والفكر والولاء هي المعيار وليس الأصل كما كان زمن الدولة الأموية[٧].

---

١ - لقد تمت الإشارة في مقدمة الدراسة إلى العديد من الدراسات التي تناولت حياة الجاحظ، ولذا لا داعي لإعادة ذكرها هنا.

٢ - كان محبوب جد الجاحظ أسود وكان جمالا لعمرو بن قلع. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ ١٤، ص١٢٤. السمعاني، الأنساب، جـ ١، ص ٥١٤.

٣ - هذه النسبة إلى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانه بن خزيمة. وكنانة قبيلة عربية الأصل، ترجع إلى مُضر، ولذلك نُعِت الجاحظ أيضاً بالكناني. ابن السائب الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب(ت:٢٠٤هـ/ ٨١٩م). جمهرة النسب، تحقيق ناجي حسن، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة:٢٠١٠م، ص٣ (سيشار إليه فيما بعد: الكلبي، جمهرة النسب). ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٣، ص٤٧٠.

٤ - قيل له "الجاحظ" لأن عينيه كانتا جاحظتين، والجحوظ: النتوء، وكان يقال له أيضاً " الحدقي " لذلك. السمعاني، الأنساب، جـ ٦، ص٦. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جزء ٣، ص٤٧٠، ذهب ابن بسام الشنتريني إلى أبعد من ذلك عندما ذكر أن جحوظ عيني الجاحظ أقعده عن التماس العزة والمودة من الخلفاء والسلاطين كما فعل ابن الزيات وإبراهيم بن العباس. انظر: ابن بسام ، الذخيرة، جـ ١، ص٢٤٣.

٥ - عمرو بن قلع الكناني ثم الفقمي وهو أحد النسأة. المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران(ت: ٣٨٤هـ / ٩٩٤م). نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء (اختصار أبي المحاسن اليغموري)، تحقيق رودولف زلهايم، بفيسبادن، ألمانيا ، ١٩٦٤م، ص٨٥ (سيشار إليه فيما بعد: المرزباني، نور القبس). ابن عساكر، تاريخ دمشق، ص٣٥٦.

٦- ورد ذلك في معظم كتبه وخاصة منها البيان والتبيين، والحيوان، وكثير من رسائله، وكذلك كتاب البخلاء الذي احتوى على الغمز واللمز بالفرس الذين كانوا أكثر الأقوام شعوبية في حينه. عزت، فلسفة الأخلاق، ص٣. أما السندوبي فقد رفض أن يكون الجاحظ ذا أصل غير عربي وحاول جمع البراهين لإثبات رأيه. السندوبي، أدب الجاحظ، ص ١١.

٧ - فوزي، مباحث في الحركة الشعوبية، ص٣٧.

ولد الجاحظ في البصرة التي كانت محط أنظار العلماء والفقهاء والأدباء[1]. فقد ازداد نمو البصرة وتطورها على الرغم من بناء بغداد لتكون عاصمة للدولة العباسية عام ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م[2] فظلت البصرة تتمتع بمكانتها الثقافية حتى صارت تمثل باب بغداد الكبير والمنفذ الرئيس لإقليم العراق. وعلى هذا الأساس ذكرها الجاحظ بقوله: " **إن العراق عين الدنيا والبصرة عين العراق**"[3]. كما أطلق عليها اليعقوبي " مدينة الدنيا "[4]. فالبصرة مدينة الجاحظ ومسقط رأسه، ولد ونشأ فيها وحتى عندما رحل عنها إلى بغداد وسامراء كان شديد التعلق بها والحنين إليها وإذا سنحت له الفرصة عاد إليها مما يعني علو منزلتها في نفسه، فقد كان لها الفضل في نشأته وتعليمه وفي ما وصل لها من مكانة أدبية إذ تلقى علومه الأولى فيها[5].

شيوخه وأثرهم في اتجاهاته الفكرية

كانت العراق في فترة حياة الجاحظ قبلة العلماء والأدباء[6]، مما هيأ له فرصة الالتقاء بالكثير من علماء ذلك العصر ممن كانوا يسكنونها أو يفدون إليها من الشيوخ والأئمة في شتى الفنون، وقبلها كان الجاحظ يأتي مِربد البصرة فيأخذ اللغة مشافهة[7]، ولم يكتف الجاحظ بالثقافة

---

١ - حسن، زاجيه عبد الرزاق. البصرة في حياة الجاحظ، مجلة كلية الآداب، العدد ٢٥، جامعة البصرة، العراق: ٢٠١٢م، ص ١٧٩ (سيشار إليه فيما بعد: زاجيه، البصرة في حياة الجاحظ).

٢ - سار المنصور يطلب موضعاً يتخذه بلداً، فبات ليلة، فطاب له المبيت، وأقام يوماً فلم ير إلا ما يجب، فقال: ها هنا ابنوا فإنه طيب، وتأتيه مادة الفرات ودجلة والأنهار، فخط بغداد، ووضع أول لبنة بيده فقال: بسم الله، وبالله، والحمد لله، ابنوا على بركة الله، وذلك بعد أن بعث رجالاً لهم فضل يتطلبان موضعاً، ثم وقع لاختيار على هذه البقعة، وسأل راهباً هناك عن أمر الأرض وصحتها وقال: هل تجدون في كتبكم أنه يبنى ها هنا مدينة قال: نعم يبنيها مقلاص، قال: فأنا كنت أدعى بذلك لما بنى مدينة الرافقة قال له راهب: إن إنساناً يبني هنا مدينة يقال له مقلاص، قال: أنا هو. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٩، ص ٣٣.

٣ - وردت هذه العبارة عند الجاحظ في رسالتين: الجد والهزل، جـ ٤، ص ١٣٩. ورسالة الأوطان والبلدان، ص ١١٧. انظر أيضاً: الثعالبي، عبدالملك بن محمد إسماعيل(ت ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧).ثمار القلوب في المضاف و المنسوب، دار المعارف، القاهرة: ١٩٨٥م ، ص١٢٧(سيشار إليه فيما بعد: الثعالبي، ثمار القلوب).

٤ - اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب(ت:٢٨٤هـ/٨٩٧م).البلدان، ط ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٩٨٨م، ص٦٣(سيشار إليه فيما بعد: اليعقوبي، البلدان).

٥ - تناول الجاحظ البصرة كثيرا في مؤلفاته بحيث لا نجد رسالة مهما كان الموضوع الذي تعالجه إلا وذكر البصرة وهذا يدل على مدى تعلق الجاحظ بالبصرة، كذلك أفرد فصلا في رسالته الحنين إلى الأوطان تحدث فيه عن البصرة وفضلها وفضل أهلها. انظر: الجاحظ، رسالة الحنين إلى الأوطان، جـ ٤، ص ١٣٩.

٦ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ ١، ص٤.

٧ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦، ص ٥٣. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ١١، ص ٥٢٧. بلاء، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص١٩. كحالة، عمر رضا(ت: ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م). معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت:١٩٥٧م، جـ ٨، ص٧ (سيشار إليه فيما بعد: كحالة، معجم المؤلفين).

والمعارف العربية بل تعرف كذلك إلى الثقافة اليونانية فكثيرا ما ناقش حُنين بن إسحاق[1] وسلمويه[2]، وقرأ لابن المقفع[3] فاطلع على الثقافة الفارسية.

أما شيوخه فإن معظم علماء البصرة الذين عاصرهم قد حضر حلقاتهم، فشخص مولع بالعلم لن يدخر جهدا في النهل من هذا المعين المتاح. ولكن مترجميه اقتصروا على العلماء الأجلاء المشهورين الذين تتلمذ عليهم مباشرة [4] . وأهم هؤلاء العلماء:

في اللغة والأدب والشعر والرواية والأنساب: فقد أخذ عن أبي عبيدة معمر بن المثنى التميمي[5] روى عنه الأشعار والأخبار واللغة والطبيعيات، فقال عنه **" ليس في الأرض أعلم بجميع العلوم منه"**[6] ، والأصمعي[7] أخذ عنه الأخبار والنوادر والمعارف الطبيعية عن الحيوانات[8]، وأبو زيد بن أوس الأنصاري[9] اشتهر بغريب اللغة والنوادر، وذكر الجاحظ في

---

١ - أبو زيد العبادي النصراني الشقي حنين بن إسحاق علامة وقته في الطب. وكان بارعا في لغة اليونان. شيخ الطب بالعراق. كان بصيراً باللغة اليونانية فعرب كتباً عديدة في الطبيعي والرياضيات. وله مصنفات مشهورة في الطب والمسائل وغيرها. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١٩، ص ١٢٨.

٢ - سلموية بن بنان، طبيب المعتصم الذي اختاره وأكرمه إكراماً كثيراً. وكانت التواقيع ترد إلى الدواوين وغيرها بخط سلمويه وتواقيع الأمراء والقواد وغيرهم في حضرة المعتصم بخطه، وولى أخاه إبراهيم بن بنان خزائن الأموال وخاتمه مع خاتم المعتصم. وكان سلمويه نصرانياً حسن الاعتقاد في دينه، كثير الخير، محمود السيرة، الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٥، ص ٩٨.

٣ - ابن المقفع عبد الله بن المقفع الكاتب المشهور بالبلاغة، صاحب الرسائل البديعة، وهو من أهل فارس، وكان مجوسياً فأسلم على يد عيسى بن علي عم السفاح والمنصور الخليفتين الأولين من خلفاء بني العباس، ثم كتب له واختص به. وكان ابن المقفع مع فضله يتهم بالزندقة، فحكى الجاحظ أن ابن المقفع ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد كانوا يتهمون في دينهم، ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص١٥١.. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٩، ص ٩٨.

٤- ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣، ص ٤٧١ . بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص١١٧. ذكر السندوبي أسماء شيوخه لكن لم يفصل في العلوم التي أخذها عنهم، أدب الجاحظ، ص ٢٦.

٥ - أبو عبيدة مولى بني سلامة من بني تيم بن مرة ولد سنة اثنتي عشرة ومائة ومات سنة ثمان ومائتين، بلغ ثلاثا وتسعين سنة، ولد في سنة عشر ومئة، في الليلة التي توفي فيها الحسن البصري. كان متوسعاً في علم اللسان، وأيام الناس.. ابن النديم، الفهرست، ص٧٦ . المرزباني، نور القبس، ص٤٠.

٦ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٨٠

٧ - أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمعكان الأصمعي من أهل البصرة، كان من أئمة أهل اللغة سلك البراري والبوادي وصحب الأعراب وأخذ الأدب من معدنه، السمعاني، الأنساب، جـ ١، ص١٧٧. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٣، ص ١٧٠.

٨ - القيرواني، العمدة، جـ ٢، ص ٢٣٣. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢٨

٩ - سعيد بن أوس الأنصاري من صلبية الخزرج قال أبو العباس المبرد كان أبو زيد عالما بالنحو. ابن النديم، الفهرست، ص٧٧

كتبه الموضوعات ذاتها التي ذكرها الأنصاري، كما روى له أخبارا عن الحيوان ومعارف أخرى[١].

ومحمد بن زياد بن الأعرابي[٢]، كان له حلقة يحضرها خلق كثير ومنهم الجاحظ، ، استفاد منه في الشعر واللغة[٣]، وخلف الأحمر[٤] كان الجاحظ معجباً به **"وقد جلست إلى أبي عبيدة، والأصمعي، ويحيى بن نجيم، وأبي مالك عمرو ابن كركرة مع من جالست من رواة البغداديين، فما رأيت أحدا منهم قصد إلى شعر في النسيب فأنشده. وكان خلف يجمع ذلك كله"**[٥].

وأبو عمرو الشيباني[٦] ويبدو أن الجاحظ قد استفاد منه خاصة في كتاب الحيوان على الرغم من أنه لم يكن راضيا عن بغض أحكامه في الشعر، إذ يقول الجاحظ: **"ولقد رأيت أبا عمرو الشيباني يكتب أشعارا من أفواه جلسائه، ليدخلها في باب التحفظ والتذاكر. وربما خيل إلي أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبدا أن يقولوا شعرا جيدا، لمكان أعراقهم من أولئك الآباء"**[٧]. وأبو الحسن الأخفش[٨] الذي أخذ النحو عن سيبويه ويُعدُّ من كبار شيوخ الجاحظ فقد أخذ عنه الكثير من

---

١ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ٣، ص ٣٦٤. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٣٧٨-٣٧٩. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٩، ص ٤٩٤. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٣١

٢ - ابن الأعرابي محمد بن زياد بن الأعرابي مولى العباس بن محمد كان عجباً في معرفة اللغة والأنساب وكان أحول، المرزباني، نور القبس، ص١١٢. الصفدي، الوافي بالوفيات جـ ١، ص١٣١.

٣ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦، ص ١٤٣- ١٤٨. وفيات الأعيان، جـ ٤، ص ٣٠٦-٣٠٧.

٤ - اللغوي الشاعر، يكنى أبا محرز، مولى بلال بن أبي بردة. تعبد في أواخر عمره. حمل عنه ديوانه أبو نواس، ورثاه بقصيدة. ولخلف القصيدة السائرة التي نحلها تأبط شراً:(إن بالشعب الذي دون سلع .... لقتيل دمه ما يطل). الحموي، معجم الأدباء، جـ ٣، ص ٣٦٤. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ١١، ص١٠٨. انظر أيضاً: الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٤، ص٣٧٤.

٥ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٥٩.

٦ - أبو عمر إسحاق بن مرار الشيباني مولى وليس من بني شيبان ولكنه كان مؤدباً لأولاد بعضهم، فنسب إليهم كاليزيدي. هو راوية أهل بغداد، واسعُ العلم باللغة والشعر، له كتبٌ منها " النوادر " ومنها " كتاب الحروف " الذي لقبه بالجيم. المرزباني، نور القبس، ص١٠٢. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٣، ص١٧٢.

٧ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٦٠.

٨ سعيد بن مسعدة المجاشعي(٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م) كان أبو الحسن الأخفش الأوسط أجعل لا تنطبق شفتاه على أسنه. قرأ النحو على سيبويه وكان أسن منه، ولمْ يأخذ عن الخليل. وكان معتزلي من غلمان أبي شمر. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ٥، ص٨٢.. كحالة، معجم المؤلفين، جـ٤، ص٢٣١.

الروايات وبخاصة في كتاب النحو[1]، وعلي بن محمد المدائني[2] روى له الكثير من الأخبار في كتبه، إذ ذكره في كتاب البيان أكثر من سبعين مرة[3]،

والهيثم بن عدي[4] أخذ منه الأخبار والأنساب والشعر، وروى له العديد من الروايات في البيان والبرصان والبخلاء[5]، وهشام بن محمد الكلبي[6] اتصل به الجاحظ واستفاد منه في مواضيع الخيل والجن والطيور، كما أخذ منه علم الأنساب وأخبار العرب ومناقبها ووقائعها[7].

كما أخذ الجاحظ علوم الفقه والحديث[8] عن أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي[9]، ويزيد بن هارون[10]، أخذ عنه الفقه.

---

١ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤١

٢ - أبو الحسن علي بن محمد المدائني السمري(١٣٥ - ٢٢٥ هـ/٧٥٢ - ٨٤٠ م)، وهو صاحب التصانيف الكثيرة. السمعاني، الأنساب، جـ٣، ص٢٩٧. كحالة، معجم المؤلفين، جـ ٧، ص٢١١.

٣ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٣٥

٤ - أبو عبد الرحمن الهيثم بن عدي الطائي الكوفي، ولد قبل سنة ١٣٠هـ. من أهل الكوفة ولد ونشأ وبها ثم انتقل إلى بغداد. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري(ت: ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م). المعارف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: ١٩٩٢م، ص ٥٣٨ (سيشار إليه فيما بعد: ابن قتيبة، المعارف). ابن النديم، الفهرست، ص ١١٢. البغدادي، تاريخ بغداد، جـ١٤، ص٥٠

٥ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٣٦

٦ - من أهل الكوفة قدم بغداد وحث بها، وكان علما بالنسب وأخبار العرب وايامها ومثالبها ووقائعها، وله كتاب الجمهرة في النسب. ابن قتيبة، المعارف، ص ٥٣٦. ابن النديم، الفهرست، ص١٠٨.

٧ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤٦

٨ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١١٨

٩ - يعقوب بن إبراهيم بن حبيب القاضي، سكن ببغداد، وولاه الهادي موسى بن المهدي القضاء بها، ثم هارون الرشيد من بعده، وهو أول من دعي بقاضي القضاة في الإسلام. السمعاني، الأنساب، جـ ٤، ص٤٣٢. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ١٢، ص٤٩٧.

١٠ - يزيد بن هارون بن زاذان بن ثابت(١١٨ - ٢٠٦ هـ / ٧٣٦ - ٨٢١ م) مولى بني سليم يكنى أبا خالد توفي بواسط سنة ست ومائتين وله من الكتب كتاب الفرائض، ابن النديم، الفهرست، ص٢٨٠. كحالة، معجم المؤلفين، جـ١٣، ص٢٣٨.

أما في علم الكلام فيعد أبو الهذيل العلاف[1] من أشهر من أخذ عنه[2]، وأبي إسحاق إبراهيم بن سيار البلخي المعروف بالنظام المتكلم المشهور[3] كان أستاذ وصاحب الجاحظ وأورد ذكره أكثر من مائة مرة، وأثبت أراءه في مسائل عدة مثل الأعراض والجواهر[4].

بالإضافة إلى ثمامة بن الأشرس[5] الذي يُعدُ من أجلّ المتكلمين من المعتزلة قضى حياته في العلم والأدب، كما أنه حمل المأمون على جعل الاعتزال مذهب الدولة الرسمي وحرصه على إعلان البراءة من معاوية[6]، فكان من كبار شيوخ الجاحظ.

إن الجاحظ أحيانا لا يذكر فعلا من أخذ عنهم بأسمائهم، ويكتفي بقوله :زعم ناس " وذلك عندما يورد الجاحظ رواية يشك في صحتها[7]، ولذلك يصدرها في مغلب الأحيان بلفظ" زعم " أو" زعموا ." أما صعوبة الحصول على مصادره في الرواية فيعود بالدرجة الأولى إلى نبذه التقليد والاتباع، وأنه لم يكن يأخذ عن أحد، بل كان يصدر في تفسير الروايات وتحليلها عن نزعة عقلية استمدها من مناهج المتكلمين[8]. ومن ثم يتبدّى أن ثقافة الجاحظ جاءت متنوعة وعميقة فلم يعتمد فيها على الكتب وحدها بل تتلمذ على يد جمهرة من العلماء الأفذاذ في عصرهم، كما أنه لم يقتصر على أهل فن أو علم بعينه بل استقى ثقافته من تخصصات متنوعة حتى برز في علوم شتى.

---

١ - أبو الهذيل العلاف محمد بن محمد(١٣٥ - ٢٣٥ هـ/ ٧٥٣ - ٨٥٠ م)، من أئمة المعتزلة. أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل تلميذ واصل بن عطاء الغزال. وجاوز التسعين، وتوفي في سنة سبع وعشرين ومئتين، الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ١٠، ص٥٤٢.

٢ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٥٠

٣ - إبراهيم بن سيار بن هانئ النظام (ت ٢٣١ هـ/٨٤٥ م) كان متكلما شاعراً أديبا، وكان يتعنف أبا نواس، وله فيه عدة مقطعات. طالع كلام الفلاسفة فخلطه بكلام المعتزلة، وتكلم في القدر. ابن النديم، الفهرست، ص٢١١. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ١٦، ص٤٧٠. كحالة، معجم المؤلفين، جـ ١، ص٣٧.

٤ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤٣

٥ - ثمامة بن أشرس النميري(ت ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م) أحد المعتزلة البصريين، ورد بغداد واتصل بهارون الرشيد وغيره من الخلفاء، ويعد من كبار المعتزلة، وأحد الفصحاء البلغاء المقدمين. كان له اتصال بالرشيد، ثم بالمأمون. من تلاميذه الجاحظ. وأراد المأمون أن يستوزره فاستعفاه، وأتباعه يسمون(الثمامية) نسبة إليه، قال عنه الجاحظ: " ما علمت أنه كان في زمانه قروي ولا بلدي بلغ من حسن الإفهام، مع قلة عدد الحروف، ولا من سهولة المخرج، مع السلامة من التكليف، ما كان بلغه". السمعاني، الأنساب، جـ ١، ص٥١٤.

٦ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٥٧. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ ٣، ص ١٠٢. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٣٩١. الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧

٧ - عزت، فلسفة الأخلاق، ص ٢٦.

٨ - الجوزي، مكانة العقل، ص ٨٢.

وعند الانتقال للحديث عمن أخذ عنه فيعد يموت بن المزرع من أشهر من أخذ عن الجاحظ وذلك لصلة القربي بينهما، أخذ عنه الأخبار والنوادر والأشعار والنحو والحديث[1]، وكذلك أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله المعروف بالفراء الديلمي الكوفي[2]، ومحمد بن يزيد المبرد[3]، روى عن الجاحظ[4] في كتابه الكامل في الأدب كما روى عنه الأخبار والنوادر[5]، وأبو العيناء محمد بن القاسم[6] صاحب نوادر وشعر وأدب، كان من المقربين للجاحظ فروى عنه واقتبس منه العلم، وكانت بينهم صداقة ومودة[7]، وأبو بكر بن أبي دؤاد[8]، وميمون بن هارون[9]، وأبو حيان التوحيدي الذي ألف كتاباً في تقريض الجاحظ[10]، ومحمد بن عبد الله بن أبي الدلهاث[11].

١ - ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ ٤٥، ص ٤٣٣. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٩٥. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً ، ص ٥٦

٢ - أبو زكريا الديلمي المعروف بالفراء له مصنفات مشهورة في النحو واللغة ومعاني القرآن مات بطريق مكة سنة سبع ومئتين. الفيروزأبادي، محمد بن يعقوب(ت: ٧٢٩هـ / ١٤١٥م). البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تحقيق محمد المصري، ط ١، جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت: ١٩٨٦م، ص٨٠ (سيشار إليه فيما بعد: الفيروزأبادي، البلغة).

٣ - المبرد محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الازدي، أبو العباس(٢١٠ - ٢٨٦ هـ/ ٨٢٦ - ٨٩٩ م)، إمام العربية ببغداد في زمنه، وواحد من أئمة الأدب والأخبار. مولده بالبصرة ووفاته ببغداد. من كتبه الكامل. الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦، ص ٣٨٠. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٤، ص ٣١٣.

٤ - دخل الجاحظ على المازلي وعنده المبرد - وهو غلام - فأخفى شخصه في جب عن الجاحظ، وجلسا يتحدثان فعطس المبرد من مكمنه، فقال الجاحظ: من هذا المبرد منا؟ فسمي بذلك. العسكري، الأوائل، جـ ٧، ص ١١٩.

٥ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٥٦

٦ - أبو العيناء الهاشمي، مولى أبي جعفر المنصور البصري الإخباري اللغوي الضرير. ولد بالأهواز ونشأ بالبصرة وكان أحد الموصوفين بالذكاء والحفظ وسرعة الجواب توفي في جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وولد سنة إحدى وتسعين ومائة. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٢١، ص٢٨٧.

٧ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٥٢.

٨ - أبو بكر بن أبي دؤاد الإيادي كان ثقة كثير الحديث، عارفا بالفقه على مذهب الشافعي، سكن بغداد إلى حين وفاته. السمعاني، الأنساب، جـ ٢، ص ٥٠٠.

٩ - ميمون بن هارون بن مخلد بن أبان(ت ٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م) كاتب، صاحب أخبار وآداب وأشعار. من أهل بغداد. أخذ عن الجاحظ ومعاصريه، وأخذ عنه جعفر بن قدامة وآخرون. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ١٣، ص ٢١٠.

١٠ - كتاب تقريظ الجاحظ، ضاع ولم يعد له أثر إلا ما نقل عنه ياقوت الحموي. فكثيراً ما يستشهد به في كتابه إرشاد الأريب بعبارة "قرأت بخط أبي حيان التوحيدي في كتابه الذي ألفه في تقريظ عمرو بن بحر ". انظر: معجم الأدباء، جـ ١، ص، ٢٥٩، ٢٧٤، ٨٧٨ وغيرها.

١١ - كان حسن النظر في علل النحو، وكان يؤدب ولد سعيد بن قتيبة الباهلي، وكان من أعيان أصحاب الفراء، وأخذ عنه ثعلب. الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦، ص ٨٣

الجاحظ وثقافته الموسوعية

إن التراث الذي خلَّفه الجاحظ ينم عن ثقافة متنوعة في شتى الميادين، فلم يكن الجاحظ ذا اختصاص واحد بل تعددَ ليكتب في كل فروع المعرفة[1]، وقد لاحت ملامح هذه الثقافة في فترة مبكرة من حياته، ويكفينا أن نشير إلى ما وصل إليه من مكانةٍ جنى ثمارها بفضل هذه العبقرية، بل يرى البعض أنه لم يضع كل علمه في كتبه، ولاسيما في البلاغة، ضناً به على غير أهله[2].

كما تتمثل ثقافته في قوة حجته في النقاش والْجدل، وقدرته النقدية وفنونه الكلامية[3]، ومنهجه وأسلوبه. وكان لتقدم النهضة العلمية وازدياد حركة التأليف والترجمة ما أتاح له الإقبال على قراءة الكتب المترجمة، فهيأت له أسباب الإلمام بالفلسفة اليونانية أكثر مما هيئ لأستاذه النظام[4]، ولذلك تجده قد تغلغل في علم الكلام ومزجه بكثير من آراء الفلاسفة اليونانيين[5].

انفرد الجاحظ بمقاله وافقه عليها كثير من مريديه وتلامذته الذين أطلق عليهم الجاحظية[6]. لقد أحاط الجاحظ بثقافات عصره، فبحث في كل العلوم والفنون. حيث كان يروي

---

١ - المرجع نفسه، ص١٩

٢ - ابن بسام، الذخيرة، جـ ١، ص١٩٨ .

٣ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ١، ص ٥٣

٤ - انظر ترجمة النظام، ص ٣٦ .

٥ - تعليل تسمية علم الكلام بأن أبوابه عنونت أولا بالكلام في كذا، " فليس علم الكلام وحده دون سائر العلوم هو الذي اختص بهذا النحو من التبويب، فكذلك غالبية العلوم في ذلك العصر خاصة علوم الدين، كعلم الفقه، وعلم الحديث وغيرها تبدأ أبوابها معنونة بعبارة الكلام في كذا. بجة، زكية. النقد التطبيقي عند الجاحظ (كتاب الحيوان نموذجاً) دراسة تاريخية وصفية، رسالة ماجستير، جامعة الحاج خضر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر: ٢٠٠٤م، ص ٢١ (سيشار إليه فيما بعد: بجة، النقد التطبيقي).

٦ - الجاحظية: بفتح الجيم بعدها الالف وكسر الحاء المهملة وفي آخرها الظاء المعجمة، هذه النسبة إلى فرقة من المعتزلة يقال لهم الجاحظية وهم أصحاب أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ البصري صاحب التصانيف الحسنة، وكان من أهل البصرة، وأحد شيوخ المعتزلة، وانفرد عن المعتزلة بمسائل واستقل باتجاهه بمجموعةٍ من الآراء والمواقف الخاصة، وتمثل ذلك بنظريته في المعرفة التي قادته إلى آرائه الخاصة في الله والنبوة والإمامة.
منها قوله: إن المعارف كلها ضرورية طباع، وليس شيء من ذلك من أفعال العباد. وليس للعبد كسب سوى الإرادة، وتحصل أفعاله منه طباعا ، وأيضا أنه أنكر أصل الإرادة وكونها جنسا من الأعراض فقال: إذا انتفى السهو عن الفاعل، وكان عالما بما يفعله فهو المريد على التحقيق. وأما الإرادة المتعلقة بفعل الغير فهي ميل النفس إليه، وزاد على ذلك بإثبات الطبائع للأجسام كما قال الطبيعيون من الفلاسفة، وأثبت لها أفعالا مخصوصة بها، وقال باستحالة عدم الجواهر؛ فالأعراض تتبدل، والجواهر لا يجوز أن تفنى. ومن ذلك أيضاً "قوله في أن أهل النار لا يخلدُون فيها عذاباً، بل يصيرون إلى طبيعة النار. وكان يقول: النار تجذب أهلها إلى نفسها من دون أن يدخل أحدٌ فيها"، وهذا ما سيبني عليه الفلاسفة اللاحقون ما سمي مشكلة حشر الأرواح لا الأجساد التي كفرهم بها الإمام الغزالي في كتابه التهافت. " كفر الغزالي الفلاسفة في ثلاث قضايا كبرى هي

الأدب وينقده نقد البصير، وينقل آراء الفلاسفة ويزنها بميزان العقل. فما استساغ عقله قبله وإلا نقده وفنده وبرهن على خطئه وفساده[1]. وللجاحظ موقف جريء في معارضة رافضي التيار العقلي، يتجلى موقفه هذا في رسالته "صناعة الكلام "التي يشيد فيها بعلم الكلام و فوائده، ردا على المحدثين بزعامة" أحمد بن حنبل"، الذين استصغروا شأن علم الكلام وحرموه[2]. فلا غرابة أن يورد الجاحظ ما فعله المعتصم في أحمد بن حنبل بشيء من التصغير والتبسيط، وفي كل الأحوال فإن نزعة الجاحظ ضد أحمد بن حنبل لم تكن لشخصه فقط وإنما لكل تيار السنة الذي يمثلهم أحمد بن حنبل[3]. كما هاجم الجاحظ المحدثين واتهمهم بحرفية النصوص وظاهر معانيها[4].

وعلى الرغم من أهمية الكتاب في الثقافة والمعرفة، إلا أن الجاحظ أدرك أن هذه المعرفة تبقى مشوشة، ولذا فإن العلم لا بد أن يؤخذ في البداية عن أيدي أصحابه من العلماء والمعلمين، كما أشار أن التعليم لا يقوم على الحفظ بل أيضا من المهم إعمال العقل والتفكر " **ولا ينبغي أن يقوم التعليم على التلقين والحفظ بل يجب أن ينمي القدرة على الاستنباط والتفكير لدى الناشئة"**[5].

لم يكتف الجاحظ بنهم العلم من بطون الكتب " **فالعلماء الذين اتسعوا في علم العرب، حتى صاروا إذا أخبروا عنهم بخبر كانوا الثقات فيما بيننا وبينهم"**[6]، إذ العلم الحق لا يؤخذ إلا عن معلم،

الخلق من عدم وعلم الله بالجزئيات وحشر الأرواح لا الأجساد" . السمعاني، الأنساب، جـ ٦، ص ٦. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ١، ص ٧٥. خفاجي، محمد عبد المنعم. أبو عثمان الجاحظ، دار الكتاب اللبناني، بيروت: ١٩٨٢م، ص ١٨٥ (سيشار إليه فيما بعد: خفاجي، الجاحظ).

١ - كثيرا ما يورد الجاحظ في ثنايا مؤلفاته النقاط التي خالف فيها من سبقوه أو عاصروه، فكان يستخدم كلمة زعم أو يزعم كإشارة عن عدم موافقته لما ورد، ثم يبدأ في تفنيد تلك الفكرة بالحجج والبراهين، وهذا ما نلمسه كثيراً في كتاب الحيوان. انظر مثلا قوله: "وقد زعم ناس أنّ حكم شعر الرأس خلاف حكم أشفار العينين" جـ١، ص ٧٦. "وقد زعم البصريّون أن حديجا الخصيّ، خادم المثنّى بن زهير" جـ١، ص ٧٩. " وقد زعم ناس من أهل سليمان بن عليّ ومواليهم، أنّ ولد داود بن جعفر الخطيب المعتزليّ، إنّما ولد له بعد أن نزعت بيضته اليسرى، لأمر كان عرض له" جـ ١، ص٨٢.

٢ - انظر الجاحظ، رسالة الجد والهزل، جـ ٤، ص ٢٤٧ وما يليها. كان موقف الجاحظ من أحمد بن حنبل الموسوم بالشدة منسجما مع نزعته الاعتزالية وكذلك مع قربه من السلطة العباسية. الزويري، الإمامة، ص٤٧.

٣ - الزويري، الإمامة، ص ٤٦

٤ - النجم، الجاحظ، ص٦

٥ - الجاحظ، رسالة المعلمين، ص ٢٠١.

٦ - الجاحظ، الحيوان، جـ٤، ص ١٣٨

فتتلمذ على أيدي العديد من العلماء[1] وأثرى فكره من خلال اتصاله بهم، وبالرغم من أنه لم يتفق أحيانا مع بعضهم أو لم يقتنع بأفكارهم إلا أنه لم ينكر فضلهم عليه.

أسهم تردد الجاحظ على حلقات العلم في اتجاهه الموسوعي في التصنيف[2]، وقد رأى الجاحظ أن يجمع بين الثقافات المختلفة " **لم يكتف بالتردد على أوساطٍ معينةٍ بغية التعمق في مادة اختارها بل لازم كل المجامع، وحضر جميع الدروس، واشترك في مناقشات العلماء المسجديين[3]، وأطال الوقوف في المربد ليستمع إلى كلام الأعراب، ونضيف إلى جانب هذا التكوين، الذي لم يعد لـه طابع مدرسي محدود، المحادثات التي جرت بينه وبين معاصريه وأساتذته في مختلف المواضيع** "[4].

الاعتزال وأثره في تكوين الجاحظ الثقافي

شكل الاعتزال نقطة فاصلة في التوجه العقلي نحو التفكير، أي تحكيم العقل في كل شيء[5] ومن ضمنها الدين[6]؛ وكان أثره ممتداً لكل الأمصار والأجناس[7]، وامتد أثره سنوات طويلة حتى بعد أن منع من قبل السلطة العباسية زمن الخليفة العباسي المتوكل عام ٢٣٢هـ / ٨٤٦م[8] الذي قام بتقريب أهل السنة وإبعاد المعتزلة[9]. ويعد الاعتزال من مظاهر العقلانية في الفكر الإسلامي، فنشأته تدل على أصالته[10].

---

١ - تم تفصيل ذلك في الجزء الخاص بأساتذة الجاحظ.

٢ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص١١٣. عزت، فلسفة الأخلاق، ص ١٩

٣ - طائفة من العلماء وأرباب النحو واللغة كانت تجتمع في مسجد البصرة. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص١٩.

٤ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص١٩.

٥ - الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ٢، ص١٢١. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢٧

٦ - جبر، الجاحظ، ص ٢٢.

٧ - بجة، النقد التطبيقي، ص ١٣

٨ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ١٥

٩ - ابن الجوزي، المنتظم، جـ ١١، ص ٢٠٦. الزويري، الإمامة، ص ٣٦. انظر تعريف المعتزلة: الشذر: الفاظ الحضارة العباسية، ص ٢٠٢.

١٠ - الجوزي، مكانة العقل، ص ٤٧.

وقد ظهرت كلمة الاعتزال منذ فترة مبكرة في تاريخ الإسلام، وذلك بعد الوقائع التي حدثت بين المسلمين ومن ضمنها موقعة الجمل وصفين[1]؛ اللتين تعدان نقطة البدء للتطور السياسي والديني لاحقا لقسم كبير من المسلمين[2]، فمن ترك القتال ولم ينضم إلى فئة معينة صار كأنه اعتزل الناس[3] " **ثم قال عثمان بن حنيف لعمران بن حصين: اشر علي، فقال اعتزل**"[4]، كما شاع بين الباحثين والدارسين أن بداية ظهور مصطلح الاعتزال بعد اعتزال واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري بعد الخلاف بينهم حول مرتكب الكبيرة[5].

ويرجع تاريخ ظهور الاعتزال بين عام ١٠٠-١١٠هـ / ٧١٨- ٧٢٨م أي أواخر القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني الهجري[6]، حيث كان للمعتزلة دور في صد هجمات أعداء الإسلام[7]؛ أما منشأ الاعتزال فقد يكون إما في البصرة أو الشام بحكم تجاورهما وبحكم التأثر والتأثير بينهما[8]. وتقوم المعتزلة على أصول خمسة[9] تتمثل في[10]: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[11].

ويعد علم الكلام قرين مذهب الاعتزال وملازمه، حيث تصب فيه أفكار المعتزلة[12]، كما تعد مسألة كلام الله أو خلق القرآن من أشهر المسائل التي ثار حولها الخلاف بين المتكلمين

---

١ - أحمد أمين، فجر الإسلام، جـ ١، ص ٢٩٠

٢ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٦٠

٣ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٦٠. أحمد أمين، فجر الإسلام، جـ ٣، ص ٧٣٤

٤ - ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٢٥٩.

٥ - السندوبي، أدب الجاحظ، ص ٩٤، ص ٩٧. بجة، النقد التطبيقي، ص ١٥

٦ - السندوبي، أدب الجاحظ، ص ٩٣. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١٢١. بجة، النقد التطبيقي، ص ١٨.

٧ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١٢١.

٨ - يرجّح بلا أن نشأة الاعتزال في البصرة لكونها موطنا للمذاهب العقلية. انظر: بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١٧٦. بجة، النقد التطبيقي، ص ١٩

٩ - لم تشر هياجنه إلى المنزلة بين المنزلتين في حديثها عن أصول المعتزلة والتي تعد أصلا رئيساً فيها، الجاحظ مؤرخاً، ص٢٠. انظر أيضا: الجوزي، مكانة العقل، ص ١٦٣.

١٠ - تم التفصيل في الأصول التي تقوم عليها المعتزلة في الفصل الرابع.

١١ - المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٤٤٤. ابن المرتضى، أحمد بن يحيى المهدي لدين الله(ت: ٨٤٠ هـ/ ١٤٣٦م). طبقات المعتزلة، تحقيق سوسنة دِيفلد، دار مكتبة الحياة، بيروت: ١٩٦١م، ص٩ (سيشار إليه فيما بعد: ابن المرتضى، طبقات المعتزلة).

١٢ - بجة، النقد التطبيقي، ص ١٩

زمن المأمون، فقد احتدم الصراع بين المعتزلة وأحمد بن حنبل حول مسألة خلق القرآن[١]، وهي المسألة التي أدت إلى سجن أحمد بن حنبل حتى عفا عنه الخليفة المتوكل الذي ضرب المعتزلة[٢] وأوقف مذهبها[٣] " **ولما أفضت الخلافة إلى المتوكل أمر بترك النظر والمباحثة في الجدال، والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق والمأمون وأمر الناس بالتسليم والتقليد، وأمر شيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السلف والجماعة**"[٤]؛ ويرى بلا أن إفراط المعتزلة في التعصب لمذهبهم واتصالاتهم السياسية المفضوحة لم يتيحا لهم النجاح المستمر[٥].

أما نشأة علم الكلام فترجع إلى ظهور الفرق الإسلامية من معتزلة وخوارج ومرجئة وشيعة، مما أدى إلى اختلافات فكرية بينها، ثم تطور الاختلاف الفكري ليأخذ بعداً سياسيا في شكل صراع فكري حول الإمامة وغيرها من المسائل[٦].

بدأ الجاحظ علاقته بالمعتزلة بعد أن اتصل بأبي الهذيل العلاف في البصرة في نهاية القرن الثاني الهجري[٧]؛ أي قبل رحيله عنها[٨]؛ ويرى بلا أن الجاحظ اعتنق المذهب مباشرة بعد بداية اتصاله برجال المعتزلة، وذلك من خلال الدور الذي لعبته المعتزلة بشكل عام والجاحظ بشكل خاص في محاربة الإلحاد والتأثيرات الفارسية المتمثلة في الشعوبية والزندقة والمانوية وغيرها[٩]. ويعد حسب مؤرخي الفرق من الطبقة السابعة من طبقات المعتزلة[١٠]. كما اتصل الجاحظ بمويس بن عمران[١١] الذي كان معينا له عندما تبرمت والدة الجاحظ من عمل ابنها

---

١ - المرجع نفسه، ص ٢٢

٢ - قام المتوكل بالعديد من الإجراءات من ذلك أنه استقدم المحدثين إلى سامراء مثل إسحاق بن أبي إسرائيل وكان من كبار المحدثين استحضره المتوكل إليه ليسمع كلامه وينتفع برؤيته، الذهبي، العبر في خبر من عبر، ص ٨٤. كذلك ما فعله بقاضي مصر " بعث المتوكل إلي نائب مصر أن يحلق لحية قاضي القضاة بمصر أبي بكر محمد بن أبي الليث، وأن يضربه " الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١٧، ص٢٢.

٣ - جبر، الجاحظ، ص ٢٢

٤ - المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢، ص ٧٥

٥ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١٢١

٦ - بجة، النقد التطبيقي، ص ٢٣

٧ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١١٨. الزويري، الإمامة، ص ٢٦. الجوزي، مكانة العقل، ص ٤٩.

٨ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١١٩

٩ - المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ١٤٣. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ص ١٢٢

١٠ - تم التصنيف على أساس المرحلة الزمنية التي ظهر فيها الجاحظ، الجوزي، مكانة العقل، ص ١٦٣

١١ - أشار بلا أن علاقة الجاحظ بمويس تتسم بالاحترام ممزوجة بعرفان الجميل، لكنه أشار إلى عدم تيقنه من تأثير مويس على تكوين الجاحظ العقلي، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٠٣

فأعانه بمال[1]؛ فكان صديقا له يجالسه حيث أن دار موسى بن عمران يجتمع بها المولعون بالكلام[2].

لقد تبلور فكر الجاحظ المعتزلي منذ أن كان في البصرة بعد جلوسه في حلقات المسجديين وكبار رجالات المتكلمين والعقلاء، لكنه تبلور واتضح بعد أن تبنت الدولة العباسية مذهب الاعتزال معتقدا فكريا رسميا عام ٢١٨هـ/ ٨٢٣م[3].

مذهب الجاحظ هو مذهب الفلاسفة في نفي الصفات. وفي إثبات القدر خيره وشره من العبد. **"ومذهب الجاحظ هو بعينه مذهب الفلاسفة. إلا أن الميل منه ومن أصحابه إلى الطبيعيين منهم أكثر منه إلى الإلهيين"**[4]. وتنسب إلى الجاحظ الفرقة المعروفة بالجاحظية من المعتزلة[5]، التي انفردت عن المعتزلة في مبادئ خاصة بها[6]، ومن مبادئ المعتزلة الاعتماد على العقل كليا في الاستدلال لعقائدهم وكان من آثار اعتمادهم على العقل في معرفة حقائق الأشياء وإدراك العقائد، أنهم كانوا يحكمون بحسن الأشياء وقبحها عقلاً فقالوا: **" المعارف كلها معقولة بالفعل، واجبة بنظر العقل، وشكر المنعم واجب قبل ورود السمع أي قبل إرسال الرسل، والحسن والقبيح صفتان ذاتيتان للحسن والقبيح"**[7]. كما تزعم أن المعارف ضرورية الطباع وليس شيء منها من أفعال العباد[8]. كما يؤكد الجاحظ أن المعارف ضرورية حتى تستقيم أفعال العباد[9].

---

١ ـ جبر، الجاحظ، ص٨. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١١٠.

٢ ـ الزويري، الإمامة، ص ٢٧

٣ ـ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٥٧. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ ٣، ص ١٠٢. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٩١. نوري، الجاحظ، ص ٣

٤ ـ الشهرستاني، الملل والنحل، جـ١، ص٧٦.

٥ ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ٤٧١.

٦ ـ انظر هامش الجاحظية ص ٦٩.

٧ ـ الشهرستاني، الملل والنحل، جـ١، ص٧٥

٨ ـ السمعاني، الأنساب، جـ ٦، ص٦

٩ ـ جبر، الجاحظ، ص ٢٢. الزويري، الإمامة، ص ٤١

يُعد الجاحظ أشهر رجال المعتزلة[1] وذلك بإجماع مؤرخي الفرق أمثال أبي الحسن الأشعري[2]، وابن المرتضى[3]، والشهرستاني[4]، والمسعودي[5]، وابن خلدون[6]، كما أن ج. دي بور مؤرخ الفلسفة الإسلامية ذكر أن الجاحظ "**أعظم رجل أخرجته لنا مدرسة النظام**"[7].

كما يعد النظام أشهر رجال المعتزلة ومن أبرز من تأثر بهم الجاحظ[8]، حيث يصفه المسعودي بقوله: " **وكان غلام إبراهيم بن سيار النظام، وعنه أخذ، ومنه تعلم**"[9]، كما أن الخطيب البغدادي يؤكد على العلاقة الوثيقة بينهما بكونه أستاذه[10]، حيث كان الجاحظ يجّل النظام ويقدره[11]. كما أن تأثير مذهب الجاحظ الاعتزالي ظهر في علاقته بثمامة بن أشرس، الذي كان له حظوة في الدولة العباسية في خلافة المأمون[12]، وذلك من خلال تأثير ثمامة على المأمون ودفعه لاعتناق مذهب الاعتزال الذي أدى إلى ترسيخ المذهب ومن ثم أقرته الدولة مذهباً رسميا لها بداية من عام ٢١٨هـ / ٨٢٣م[13].

---

١ - المعتزلة فرقة إسلامية تنتسب إلى واصل بن عطاء الغزال، تميزت بتقديم العقل على النقل، وبالأصول الخمسة التي تعد قاسما مشتركا بين جميع فرقها، من أسمائها القدرية والوعيدية والعدلية، سموا معتزلة لاعتزال مؤسسها مجلس الحسن البصري بعد خلافه معه حول حكم الفاسق. البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٩٥-٩٦. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ١، ص ٤٣. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٥، ص٤٦٤.

٢ - الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة(ت: ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م). مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق نعيم زرزور، ط١، المكتبة العصرية، بيروت: ٢٠٠٥م، جـ ١، ص٤٥، جـ ٢، ص٢٥٧ (سيشار إليه فيما بعد: الأشعري، مقالات الإسلاميين).

٣ - ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، ص٦٨

٤ - الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص٧٥.

٥ - المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢، ص١٢٣

٦ - ابن خلدون، المقدمة، ص٣٤١

٧ - دي بوير، ت ج. تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة علي محمد عبدالهادي، ط ٥، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة: ١٩٨٠م، ص١١٢ (سيشار إليه فيما بعد: دي بوير، تاريخ الفلسفة).

٨ - الزويري، الإمامة، ص ٢٨. الجوزي، مكانة العقل، ص ٥٠.

٩ - المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢، ص ١٢٣.

١٠ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ ١٢، ص ٢١٣.

١١ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١١٨. الزويري، الإمامة، ص ٢٨

١٢ - الزويري، الإمامة، ص ٢٩. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢١

١٣ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٥٧. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ ٣، ص ١٠٢. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٩١. نوري، الجاحظ، ص ٣.

كان دور ثمامة يتمثل في ايصال كتب الجاحظ للسلطة العباسية وتقريبه منهم، ونشير هنا إلى كتاب الإمامة الذي قدمه الجاحظ إلى المأمون عندما كان في مرو[1] فأعجب بما احتواه وأثنى عليه مما جعله يقرب الجاحظ ليغدو أشد المنافحين والمكافحين عن السلطة العباسية ويغدو الجاحظ في مكانةٍ عليةٍ لدى السلطة[2]، أما المذهب الاعتزالي فقد شق طريقه منذ ذلك التاريخ حتى أصبح رسميا في أواخر خلافة المأمون[3]، خاصة وأن المأمون بدأ يأخذ موقفا يتماشى مع نزعته الاعتزالية والتي تتمثل في البراءة من معاوية والترضي من علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عام ٢١٨هـ / ٨٣٣م [4]. كما استمر نفوذ المعتزلة واستمرت مكانة الجاحظ مقربا من السلطة[5]؛ ولعل دفاع الجاحظ عن المعتصم في موقفه من أحمد بن حنبل دليل على مكانة الجاحظ لدى السلطة وعلى قوة مذهب الاعتزال في تلك الفترة[6]" **على أنه لم ير سيفاً مشهوراً، ولا ضرب ضرباً كثيراً، ولا ضرب إلا ثلاثين سوطاً مقطوعة الثمار، مشعثة الأطراف، حتى أفصح بالإقرار مراراً. ولا كان في مجلس ضيق، ولا كانت حاله حال مؤيسة، ولا كان مثقلاً بالحديد، ولا خلع قلبه بشدة الوعيد. ولقد كان ينازع بألين الكلام، ويجيب بأغلظ الجواب، ويرزنون ويخف، ويحلمون ويطيش**"[7]. إذ أن المعتصم جمع المعتزلة لمناظرة أحمد بن حنبل والتي أدت إلى ضربه بالسياط بأمر من القاضي ابن أبي دؤاد[8].

أصبحت رؤية الجاحظ الاعتزالية تماثل رؤية الخلافة إذ وجه اهتمامه إلى القضايا التي تهم الخلافة في المقام الأول[9]، كما وأن الجاحظ نفسه يعد من رؤوس المعتزلة[10] لذا انفرد

---

١ - جبر، الجاحظ ومجتمع عصره في بغداد، ص٩. الدروبي، آثار الجاحظ، ص ١٧٨.

٢ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ١٥

٣ - جبر، الجاحظ، ص ٢٢

٤ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٣٩١ . الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧.

٥ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦،ص. ٧٢. نوري، الجاحظ، ص، ٢، ص ١٤

٦ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢١

٧ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص٢٩٥.

٨ - القزويني، زكريا محمود محمود(ت:٦٨٢هـ/١٢٨٣م). آثار البلاد وأخبار العباد، ط١، دار بيروت، بيروت: ١٩٨٤م، ص١٢٨ (سيشار إليه فيما بعد: القزويني، آثار البلاد).

٩ - الزويري، الإمامة، ص ٣٢

١٠ - جبر، الجاحظ، ص ٨. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢٠

بفرقة أطلق عليها اسم الجاحظية[1]. ويشير السندوبي أن الاثار التي تركها الجاحظ لا تعطي وصفا لآرائه في الاعتزال، بل تستنتج ذلك مما كتب عنه من الرواة والمؤرخين[2]، وهذا صحيح إذا علمنا أن الكثير من تراث الجاحظ والمعتزلة ضاع في القرن الرابع الهجري إذ أتلف الكثير من تراثهم وخاصة التي تنادي بمذهب الاعتزال.

كما دافع الجاحظ عن مذهبه وعن رجال المعتزلة، مشيداً بدورهم في الوقوف في وجه التيارات والحركات التي تريد أن تنقص من قدر الإسلام والعرب[3] بقوله: " **ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوامّ من جميع النّحل. فإن لم أقل، ولولا أصحاب إبراهيم وإبراهيم لهلكت العوامّ من المعتزلة، فإني أقول: إنه قد أنهج لهم سبلا، وفتق لهم أمورا، واختصر لهم أبوابا ظهرت فيها المنفعة، وشملتهم بها النعمة**"[4].

للجاحظ رسائل في الاعتزال نذكر منها كتاب "خلق القرآن" و "صناعة الكلام" و "رسالة في نفي التشبيه" و "كتاب النابتة"، كما أن من كتبه في علم الكلام كتاب "الرد على النصارى" وأخرى في الاعتزال وعلم الكلام لكنها مفقودة مثل كتاب " فضيلة المعتزلة" و " كتاب في الوعد والوعيد" وغيرها من الكتب التي أدرجناها ضمن ملحق الرسالة. وتعد كتب الجاحظ دليلاً على سعة اطلاعه وتبحره في علم الكلام[5] ومعرفته بالفرق الكلامية مثل الجهمية والمشبهة والخوارج والشيعة والمعتزلة وغيرها[6]. ويرى الجاحظ أن علم الكلام هو العلم الذي يجمع بين الدين والفلسفة[7] بقوله: " **إنّي وجدت فضيلة الكلام باهرة، ومنقبة المنطق ظاهرة، في خلال كثيرة، وخصال معروفة. منها: أنّك لا تؤدّي شكر الله ولا تقدر على إظهاره إلّا بالكلام. ومنها: أنّك لا تستطيع العبارة عن حاجاتك والإبانة عن مأربك إلّا باللّسان. وهذان في العاجل والآجل مع أشياء كثيرة لو ينحوها الإنسان لوجدها في المعقول موجودة، وفي المحصول معلومة وعند الحقائق مشتهرة، وفي التّدبير ظاهرة**"[8]، ويشير جميل جبر أن كتاب الحيوان يحتوي على معظم آراء الجاحظ في المعتزلة[9].

---

١ - لقد بسطنا القول حول هذه الفرقة منشأها وأتباعها في محور ثقافة الجاحظ، انظر أيضا: السندوبي، أدب الجاحظ، ص١٠٤. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢١. مردم، خليل. الجاحظ، مكتبة عرفة، دمشق: ١٩٣٠م، ص١٠ (سيشار إليه فيما بعد: مردم، الجاحظ).

٢ - السندوبي، أدب الجاحظ، ص ١٠٥.

٣ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢١

٤ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ٣٦٠

٥ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٦، ص ١٨٠. أبو الفداء، المختصر، جـ ١، ص ١٧٦.

٦ - الجوزي، مكانة العقل، ص ١٥٦. مردم، الجاحظ، ص ١٢

٧ - الجوزي، مكانة العقل، ص ١٥٧

٨ - الجاحظ، رسالة تفضيل النطق على الصمت، ص ٣٠١

٩ - جبر، الجاحظ، ص ١٤

كما يعد علم الكلام عند الجاحظ فلسفة هدفها البحث في الأسباب والعلل[1]. ونستدل مما سبق أن الجاحظ كان يولي علم الكلام أهمية كبيرة.

علاقته بالسلطة العباسية

بدأت العلاقة بين الجاحظ والسلطة العباسية عندما قرأ اليزيدي[2] على المأمون رسالة الجاحظ في الإمامة عام ١٩٨هـ / ٨١٣م[3] فأعجب بها وقال عنها: "**قد كان بعض من يرتضى عقله ويصدق خبره خبرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة، فقلنا له: قد تربى الصفة على العيان، فلما رأيتها رأيت العيان قد أربى على الصفة**"[4] مما استدعاه إلى مرو وصارت له حظوة عند السلطة[5]. لم يمكث الجاحظ في مرو طويلا بل عاد إلى البصرة وظل بها حتى عزم على الرحيل إلى بغداد عام ٢٠٤هـ/ ٨١٩م[6] حين قدم المأمون إليها[7].

---

١ - الجوزي، مكانة العقل، ص ١٦٩

٢ - يحيى بن المبارك بن المغيرة اليزيدي، سمي باليزيدي لصحبته يزيد بن منصور خال المهدي، اتصل بالرشيد فجعله مؤدبا للمأمون وكان يتهم بالميل إلى الاعتزال، مات بخراسان سنة ٢٠٢هـ / ٨١٧م. ابن النديم، الفهرست، جـ ١، ص ٧٢. الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦، ص٤٤٠. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٦، ص١٨٣. الدروبي، آثار الجاحظ، ص ١٧٨.

٣ - ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي(ت ٨٥٣هـ / ١٤٤٩م). لسان الميزان، ط١، دار الفكر، بيروت: ١٩٨٨م، جـ ٤، ص ٣٥٥ (سيشار إليه فيما بعد: ابن حجر، لسان الميزان). الدروبي، آثار الجاحظ، ص ١٧٨. الزويري، الإمامة، ص٢٩. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢١

٤ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٤٤.

٥ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٦، ص١٨٠. أبو الفداء، المختصر، جـ ١، ص١٦٧. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٦٧.

٦ - ذكر الطبري أن المأمون توجه إلى بغداد في سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٧م " وفي هذه السنة شخص المأمون من مرو يريد العراق" حيث ذكرها في أحداث سنة ٢٠٢هـ/٨١٧م . تاريخ الطبري، جـ ٥، ص ١٣١ وما يليها، كما أشار إلى وصوله بغداد الذي كان في سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م، جـ ٥، ص ١٥٠. وكذلك المسعودي في مروج الذهب يقول "وكان دخول المأمون بغداد سنة أربع ومائتين"، جـ ٢، ص ٤٨. كذلك ابن خلكان في وفيات الأعيان يذكر "قال الجاحظ: دخلت بغداد في سنة أربع ومائتين، حين قدم إليها المأمون" جـ ٦، ص ١٨٠. كما أن أبا الفداء يذكر أن انتقال المأمون إلى بغداد كان في عام ٢٠٤هـ/ ٨١٩م إذ ينقل النص السابق عن الجاحظ، المختصر، جـ ١، ص ١٧٦.

إما شارل بلا في كتابه الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، فقد ذكر أن دخول الخليفة المأمون بغداد كان في سنة ٢١٠هـ/ ٨٢٥م ، ص ٣٨٧. كما أشارت هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص١٥ والجوزي، مكانة العقل، ص ٣٦٦ أن انتقال الجاحظ إلى بغداد كان في عام ٢٠٠هـ/٨١٥م وهذا غير صحيح لأن المأمون حتى عام ٢٠٠هـ/ ٨١٥م كان ما يزال في مرو. لكن الصحيح أن المأمون خرج من مرو عام ٢٠٢هـ/٨١٧م ووصل بغداد سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م.

٧ - المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢، ص ٨٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٣، ص٤٧٠. الحموي، تقي الدين أبو بكر بن محمد بن حجة(ت:٨٣٧هـ / ١٤٣٣م). ثمرات الأوراق، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، المكتبة العصرية، مصر: ٢٠٠٥م، ص٣٠ (سيشار إليه فيما بعد: الحموي، ثمرات الأوراق).

يعد انتقال الجاحظ إلى بغداد مرحلة بدأت فيها علاقته تتوثق بالخليفة والسلطة[1]، إذ ظل في بغداد طوال خلافة المأمون، وعلى الرغم من ذلك فقد ظل متواصلا مع مسقط رأسه البصرة في زيارات بين الحين والآخر. أما في خلافة المعتصم فقد انتقل إلى سامراء[2] وهناك نشأت صداقة بينه وبين محمد بن عبد الملك الزيات[3]، وكان ملازما له، ومنحرفا عن أحمد بن أبي دؤاد[4] للعداوة التي كانت بين الرجلين إذ كان ابن الزيات يبغض أحمد بن أبي دؤاد للمنافسة التي كانت بينهما فالأول وزير المعتصم والثاني قاضيه حتى أن الواثق أمر أن لا يرى أحد ابن الزيات إلا قام له فكان ابن أبي دؤاد إذا رآه قام واستقبل القبلة يصلي[5]، فقام ابن الزيات بهجاء ابن أبي دؤاد بقصيدة من تسعين بيتاً زادت على أثرها الخصومة بينهما، واستمرت العداوة حتى تولى الخلافة المتوكل[6]، فقبض على محمد بن الزيات[7]، وهرب الجاحظ، فقيل له لم هربت؟ فقال: خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور، يريد ما صُنِع بمحمد، وإدخاله تنور حديد فيه مسامير كان هو صنعه ليعذب الناس فيه، فعُذِب هو فيه – يعني محمد بن الزيات-

---

١ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٦، ص١٨٠. أبو الفداء، المختصر، جـ ١، ص١٦٧. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٦٧. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ١٥.

٢ - لا يوجد تاريخ محدد حول انتقال الجاحظ إلى سامراء ولا عودته منها. فلم يشر الجاحظ إلى ذلك ولا من ترجم له من اللاحقين.

٣ - محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة ابن الزيات (١٧٣ - ٢٣٣ هـ/ ٧٨٩ - ٨٤٧ م)، وزر لثلاثة خلفاء من بني العباس وهم: المعتصم والواثق والمتوكل. من بلغاء الكتاب والشعراء. نبغ فتقدم حتى بلغ رتبة الوزارة. وعوّل عليه المعتصم في مهام دولته. وكذلك ابنه الواثق. ولما مرض الواثق عمل ابن الزيات على تولية ابنه وحرمان المتوكل، فلم يفلح. وولي المتوكل فنكبه، وعذبه إلى أن مات ببغداد. وكان من العقلاء الدهاة، وفي سيرته قوة وحزم. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٥،ص ٢١٤. المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ١٢٩-١٣١. مروج الذهب، جـ ٢، ص٧٥. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٥، ص١٠١.

٤ - أحمد بن أبي دواد بن جرير بن مالك الإيادي(١٦٠ - ٢٤٠ هـ/ ٧٧٧ - ٨٥٤ م)، كان شاعرا مجيداً، وفصيحا بليغاً، تولى الوزارة بعد قتل ابن الزيات زمن الخليفة المأمون، كان أحد القضاة المشهورين من المعتزلة، قدم به أبوه، وهو حدث، من قنسرين(بين حلب ومعرة النعمان) إلى دمشق، فنشأ فيها ونبغ، ومنها رحل إلى العراق. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٧، ص٤٢.

٥ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٨٥.

٦ - ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٠، ص٣٥٥.

٧ - كان المتوكل يبغض ابن الزيات لأمور منها أن أخاه الواثق غضب على المتوكل في بعض الأوقات وكان ابن الزيات يزيده غضبا عليه، فبقي ذلك في نفسه، ثم كان الذي استرضى الواثق عليه أحمد بن أبي دؤاد فحظي بذلك عنده في أيام ملكه، ومنها أن ابن الزيات كان قد أشار بخلافة محمد بن الواثق بعد أبيه، ولف عليه الناس، وجعفر المتوكل في جنب دار الخلافة لم يلتفت إليه ولم يتم الأمر إلا لجعفر المتوكل على الله، رغم أنف ابن الزيات.

فأخذ جميع ما في داره من الاموال واللآلئ والجواهر والحواصل والجواري والأثاث، وبعث المتوكل في الحال أيضا إلى حواصله بسامراء وضياعه وما فيها فاحتاط عليها، وأمر به أن يعذب ومنعوه من الكلام، وجعلوا يساهرونه كلما أراد الرقاد نخس بالحديد، ثم وضعه بعد ذلك كله في تنور من خشب فيه مسامير قائمة في أسفله فأقيم عليها ووكل به من يمنعه من القعود والرقاد، فمكث كذلك أياما حتى مات. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٥، ص ٢٩٤، ٢٩٥. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٠، ص ٣٤٢

حتى مات[1]. جيء بالجاحظ بعد مقتل ابن الزيات إلى أحمد بن أبي دؤاد الذي استلم الوزارة، فقال له: " والله ما علمتك إلا متناسيا للنعمة، كفورا للصنيعة، معددا للمساوئ، ومنا فُتني باستصلاحي لك، ولكن الأيام لا تصلح منك لفساد طويتك ورداءة داخليتك، وسوء اختيارك..."[2] لكن الجاحظ المعروف بالحجة في العذر وبجزالة اللفظ وتوقد الذاكرة والكلمة، كان يتمكن من تخليص نفسه ، وذلك بحسن انتقاء ألفاظه، حيث قربه أحمد بن أبي دؤاد مثلما كان مقربا زمن ابن الزيات[3]. ويستنتج من ذلك أن ابن أبي دؤاد أحس في الجاحظ أنه قرينه ويشبهه في كثير من الخصائص، كما أنه في حاجة إليه للدفاع عن السلطة العباسية ضد المناوئين لها.

تولى الجاحظ ديوان الرسائل زمن الخليفة العباسي المأمون[4](١٩٨- ٢١٨هـ / ٧٨٦-٧٣٣م) [5] ، وذلك بعد أن وضع رسالته في "استحقاق الإمامة"[6] والتي كانت بين عام ٢٠٠-٢٠٣هـ / ٨١٥-٨١٨م، لكنه لم يمكث في الديوان سوى ثلاثة أيام وقال كلمته المشهورة: "

---

١ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦، ص ٢٤٨

٢ - ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي(ت: ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م). إعتاب الكتاب، تحقيق صالح الأشتر، ط١، مجمع اللغة العربية، دمشق: ١٩٦١م، ص٢٢ (سيشار إليه فيما بعد: ابن الآبار، إعتاب الكتاب).

٣ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ١، ص ٥٦

٤ - أشار نوري أن الجاحظ تقلد الديوان نيابة عن إبراهيم بن العباس الصولي بناءً على إشارات وردت عند الحموي، لكن ما ورد عند الحموي أن الصولي تولى الأهواز زمن المأمون عندما كان ابن الزيات على رأس الوزارة، حيث حدثت بينهما منازعات بسبب موقف ابن الزيات من الصولي، كما أن تولي الصولي لديوان الرسائل كان زمن الخلفاء الواثق والمعتصم والمتوكل ولم يتولَّ الديوان زمن المأمون. نوري، الجاحظ، ص٢. كما ذكر شارل بلا ذلك، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٨٨، فالحموي يذكر أن الجاحظ تولى ديوان الرسائل زمن المأمون ولم يشر إلى الصولي في فترة خلافة المأمون. انظر الحموي، معجم الأدباء، جـ ١، ص ٧٠-٨٦.

كذلك نجد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد جـ ٣، ص ١٧٦، أن الجاحظ تولى ديوان الرسائل زمن الصولي، وفي سير أعلام النبلاء كان الجاحظ ينوب في ديوان الرسائل عن إبراهيم بن العباس الصولي، جـ ١١، ص ٥٢٧. أما في مسالك الأبصار، جـ ٧، ص ٣٥٤، فذكر أن الجاحظ خدم في ديوان الرسائل زمن الخليفة العباسي المأمون لمدة ثلاثة أيام. ونستنتج من هذا أن الجاحظ تولى ديوان الرسائل زمن المأمون لمدة ثلاثة أيام لكن استعفى فأعفي، أما في فترة أبراهيم بن العباس الصولي فكان الجاحظ يتولى الديوان نيابة عنه ولمدة قصيرة عندما يغيب الصولي لأي عارض.

٥ - الصولي إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول، أبو إسحاق(١٧٦ - ٢٤٣ هـ / ٧٩٢ - ٨٥٧ م): كاتب العراق في عصره. أصله من خراسان، ونشأ إبراهيم في بغداد فتأدب وقربه الخلفاء فكان كاتبا للمعتصم والواثق والمتوكل. وتنقل في الاعمال والدواوين إلى أن مات متقلدا ديوان الضياع والنفقات بسامراء. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، جـ ١، ص ٧٠- ٧٣.

٦ - وضع الرسالة في حوالي عام ٢٠٠هـ / ٨١٥م عندما قدم على المأمون في مرو، وقد طلب المأمون من وزيره أبو الهذيل الغلاف قراءة الكتاب فأعجب بما يحتويه، مما جعل الجاحظ منذ ذلك العهد ينال حظوة وقربا من السلطة. الدروبي، آثار الجاحظ، ص ١٧٨.

ظواهر نظيفة، وبواطن سخيفة"[1]. وذكر الجاحظ عاثة[2] الكتاب فقال: "أخلاق حلوة، وشمائل وثياب نظيفة، وتظرف أهل الفهم، ووقار أهل العلم، فإذا صلوا بنار الامتحان كانوا كالزبد يذهب جفاءً، وكنبات الربيع في الصيف يعروه هيف الرياح، ولا يستندون إلى وثيقة، ولا يدينون بحقيقة، أخفر الخلق لأماناتهم، وأشراهم بالثمن البخس لعهودهم. فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون"[3] ثم أنه استعفى فأعفي[4]. حين رأى الجاحظ هؤلاء الكتاب في ديوان المأمون وقد صقلوا ثيابهم وصففوا عمائمهم فوصفهم بقوله: "يتباهون بمهنتهم ويتنافسون بالظهور بمظهر الأسياد"، ولذا كان الجاحظ يُطلق عليهم لقب(الطواويس)[5]؛ وسبب ذلك لما فيهم من العجب والكبرياء[6]. فكان سهل بن هارون[7] يقول: " إذا ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكتاب "[8]. وقد ترك الجاحظ العمل في الديوان بسبب ما به من زيف ونفاق بعد أن عرف حقيقة كتاب الدواوين فوصفهم بأنهم أصحاب ظواهر نظيفة وبواطن سخيفة فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون[9]، إلا أنه بقي للخليفة مخلصاً وفياً، فأيسرت حاله بعد بؤس.

وثّق الجاحظ صلاته برجالات الدولة الآخرين، لا سيما الوزراء منهم، فأهداهم كتبه ورسائله ومصنفاته، فأجزلوا له العطاء بدورهم وأفاضوا عليه[10]. وكان لهم الدور الأكبر في نشر كتبه التي تحتوي على أفكاره" أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب الزرع

---

١ - الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت(ت: ٤٦٣هـ / ١٠٧١م). تقييد العلم، تحقيق يوسف العش، ط ٢، دار إحياء السنة النبوية، القاهرة: ١٩٧٤م، ص١٤٥(سيشار إليه فيما بعد: الخطيب البغدادي، تقييد العلم). العمري، مسالك الأبصار، جـ ٧، ص ٣٥٤. كان هؤلاء الكتاب كما يشير بلا مدينون بمراكزهم إلى أصلهم الأعجمي أكثر من كفاءاتهم، كما كانت تنقصهم الثقافة العربية. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١١٣.

٢ - العيث: أفسد وأخذ بغير رفق. وأصل العيث: الفساد. لسان العرب، جـ ٢، ص ١٧٠.

٣ - الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب، ص٦١١.

٤ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ١، ص ٥٦

٥ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٢، ص ٣٧٩.

٦ - الثعالبي، عبدالملك بن محمد إسماعيل(ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧). تحسين القبيح وتقبيح الحسن، تحقيق شاكر العاشور، دمشق: ٢٠١٢م، ص١١(سيشار إليه فيما بعد: الثعالبي، تحسين القبيح).

٧ - سهل بن هارون بن راهيون الدستميساني، أبو عمر؛ انتقل إلى البصرة واتصل بخدمة المامون وتولى خزانة الحكمة له، وكان حكيماً فصيحاً شاعراً، وله مصنفات كثيرة، مثل كتاب ثعلة وعفرة على مثال كليلة ودمنة، الحموي، معجم الأدباء، جـ ٣، ص ٥٠٣. الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر(ت: ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م). فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، ط ١، دار صادر، بيروت: ١٩٧٣م، جـ٢، ص٨٤ (سيشار إليه فيما بعد: الكتبي، فوات الوفيات).

٨ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ١، ص ٥٧

٩ - جبر، الجاحظ، ص ٥٢

١٠ - الحموي، معجم الأدباء، جـ٦، ص ٧٦.

والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار"[1]. وهذا ما ساعد الجاحظ أن تيسر حاله، فقد كانت الهبات التي يحصل عليها من الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة عاملا في رخاء حياة الجاحظ. إذ أن الهبات التي يحصل عليها كانت في مقابل مؤلفاته التي كتبها بوحي من السلطة العباسية[2].

وفي بغداد أصبح يتردد على بلاط المأمون[3] وهذه مرحلة التوافق التام بين المعتزلة والسلطة العباسية[4]، واستمرت صلة الجاحظ بالسلطة ففي عهد المعتصم استمر نفوذ المعتزلة ودافع الجاحظ عن المعتصم حول تعرضه لأحمد بن حنبل[5]؛ كما استمرت علاقته بالسلطة حتى خلافة المتوكل[6]. غير أن المتوكل لم يكن راغباً في تقريب الجاحظ، بسبب انتمائه للمعتزلة خاصة أن المتوكل اتبع سياسة سنية تعتمد الكتاب والسنة كما أنه حارب المعتزلة وشدد عليهم[7]. ثم أبطل القول بخلق القرآن[8]. وكادت أن تشمل هذه الإجراءات الجاحظ، لولا إجادته في تخليص نفسه[9]. وعلى الرغم أن الجاحظ بقي محسوبا على السلطة العباسية زمن المتوكل إلا أنه بقي مخلصا لعقيدته الدينية[10]. ويرى أحد الباحثين المحدثين أن ارتباط الجاحظ بالسلطة جعله يفكر وينظر وفق رؤيتها فلم يعد هناك حاجة للحديث عن عقائد المعتزلة بل وجه اهتمامه إلى القضايا التي تهم الخلافة[11]. ومن أهمها شرعية الخلافة التي يؤكد الجاحظ أنها مستمدة

---

١ - المصدر نفسه، ص ٥٧

٢ - النجم، الجاحظ، ص ٧

٣ - الأصفهاني، أبو الفرج (ت: ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م). الأغاني، تحقيق يوس البقاعي، ط ١، مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت: ٢٠٠٠م، جـ ٢، ص ١١٦ (سيشار إليه فيما بعد: الأصفهاني، الأغاني). الزويري، الإمامة، ص ٣٤

٤ - الزويري، الإمامة، ص ٣٤

٥ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢١

٦ - اشار بلا أن علاقة الجاحظ بالمتوكل كانت أوثق منها مع غيره من الخلفاء وهذا لا يتناسب والسياق التاريخي خاصة إذا علمنا المنزلة والحظوة التي بلغها الجاحظ في خلافة المأمون. الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٨٩.

٧ - الحموي، معجم الأدباء، جـ٦، ص ٧٤.

٨- الطبري، تاريخ، جـ ٩،ص. ١٩٠. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ١١، ص ٢٥١.

٩- الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦، ص ٥٨ - ٥٩.

١٠ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٩٤

١١ - الزويري، الإمامة، ص ٤١

للعباسيين من قرابتهم للرسول صلى الله عليه وسلم؛ كما أن شرفهم متصل قبل الإسلام وبعده[1].

يعود سبب تحول المتوكل[2] ضد المعتزلة أنه رأى سخط الرأي العام على المعتزلة وما سببوه من مشكلات بسبب مسألة خلق القرآن. وكان ذلك في وقت بدأ فيه عصر نفوذ الجند الأتراك، وهم حديثو عهد بالإسلام لا يشغلون أنفسهم بقضايا الفكر ولا يطيقون صبراً على الخلافات الدينية والمنازعات المذهبية. لذلك شعر الخليفة المتوكل بضرورة توطيد نفوذه السياسي والديني، فأعلن سنة (٢٣٣هـ/٨٤٧م) إبطال القول بخلق القرآن[3]، وهدد من آثار هذه المسألة "**وأبطل الامتحانات والمحاكمات، ونصر المحدثين**"[4].

يرى بلا أن المتوكل لم يكن بنفس قوة المأمون الذي كان يستطيع الوقوف في وجه المحدثين والمخالفين وأعطى قدرا من الحرية في إظهار الآراء والمواقف[5]، فكان المأمون يعقد جلسات للمناظرة[6] كما أنه هو كان يناظر فقد تمكن بعد أن نادى بالاعتزال أن يقاوم خصومه[7]، فكان المأمون يهدف من تلك الحرية في الاطلاع على ما يجري في المجالس والاطلاع على مواقف المعارضين له[8]. أما من جاء بعده من الخلفاء كالمعتصم والواثق فقد ظل الاعتزال قائما لكن لم يكن بنفس أوجّه زمن المأمون، لذا جابهوا المناوئين بقوة السيف أكثر منه بالحجة[9] فمن خالف المعتصم كان يلقى التعذيب والضرب[10].

---

١ - المرجع نفسه، ص (ط).

٢ - تم تفصيل ذلك في الفصل الثالث.

٣ - الطبري، تاريخ، جـ ٩،ص. ١٩٠.

٤ - في عام ٢١٨هـ / ٨٣٣م كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم في امتحان القضاة والمحدثين وأمر بإشخاص جماعة منهم إليه إلى الرقة وكان ذلك أول كتاب كتب في ذلك. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٥، ص١٨٦. أمين، ضحى الإسلام. جـ ٤، ص ٨ . بدوي، عبد المجيد. التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في الشرق الإسلامي من القرن الخامس حتى سقوط بغداد، دار الوفاء، القاهرة: ١٩٨٨م، ص ٨٣ (سيشار إليه فيما بعد: بدوي التاريخ السياسي).

٥ - الزويري، الإمامة، ص ٣٤. الجوزي، مكانة العقل، ص ٣٦٣.

٦ - بجة، النقد التطبيقي، ص ١٨

٧ - كان المأمون يرى أن مجالس المناظرة تساعد على إزالة أساب الخلاف بين العلماء. حسن، إبراهيم حسن. الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط ٧، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة: ١٩٦٤م، ص١٥٩ (سيشار إليه فيما بعد: حسن، الإسلام السياسي).

٨ - الزويري، الإمامة، ص ٣٤

٩ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٩١.

١٠ - جبري، الجاحظ، ص ٣٣٨.

لم تكن إجراءات المتوكل ضد المعتزلة فحسب بل شملت الشيعة وأهل الذمة " وفى هذه السنة أمر المتوكّل بأخذ النصارى وأهل الذمّة بلبس العسلىّ[1] نهى أن يظهروا في أعيادهم صليبا وأن يشمعوا في الطريق، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض لئلّا يشبه قبورهم قبور المسلمين"[2] . كما أن رسالة الجاحظ " الرد على النصارى" قد تكون إلى حد كبير كتبها بأمر من المتوكل[3]، الذي وصلت إجراءاته أيضا ضد الشيعة "وفيها أمر المتوكّل بهدم قبر الحسين عليه السلام وما حوله من المنازل والدور وأن يبذر ويمنع الناس من إتيانه"[4]. ويستخلص أن كتب الجاحظ مثل العثمانية أو الكتب المفقودة له والتي ذكر منها المسعودي "مسائل العثمانية"[5] والحموي " الرد على العثمانية"[6] كانت موجهة ضد الشيعة وبخاصة الرافضة[7]؛ التي كانت تعارض خلافة بني العباس وهذا يتماشى مع رغبة خلفاء بني العباس في قيام الجاحظ بالدعاية السياسية لهم من خلال ضرب خصومهم انطلاقا من فكر ديني معتزلي.

وبسبب قرب الجاحظ من العباسيين أصبح عليه الدفاع عنهم وتبرير وجودهم في السلطة[8] خاصة في الفترة التي أعقبت قتل الأمين إذ أحس المأمون بالحاجة إلى تبرير موقفه[9]. فأصبح اللسان المدافع عن العقيدة الإسلامية وفي نفس الوقت مدافعا عن السلطة العباسية[10].

---

١ - لباس خشن من الرقاع، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ ٦، ص ٢٨٤.

٢ - "وفي هذه السنة أمر المتوكل بأخذ النصارى وأهل الذمة كلهم بلبس الطيالسة العسلية والزنانير وركوب السروج بركب الخشب وبتصيير كرتين على مؤخر السروج وبتصيير زرين على قلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التي يلبسها المسلمون وبتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم مخالف لونهما لون الثوب الظاهر الذي عليه وان تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره والاخرى منهما خلف ظهره وتكون كل واحدة من الرقعتين قدر أربعة أصابع ولونهما عسليا ومن لبس منهم عمامة فكذلك يكون لونها لون العسلي ومن خرج من.نسائهم فبرزت فلا تبرز إلا في إزار عسلي وأمر بأخذ مماليكهم بلبس الزنانير وبمنعهم لبس المناطق وأمر بهدم بيعهم المحدثة وبأخذ العشر من منازلهم" الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٣٠٤.

انظر: العسكري، الأوائل، ص ٨٤. مسكويه، تجارب الأمم، جـ ٤، ص ٢٩٧.

"أخذ المتوكل أهل الذمة بلبس رقعتين عسليتين على الأقبية والدراريع، وكان ذلك في المحرم، وأن تصنع النساء مقانعهن عسليات، ثم أمر في صفر بأن يقتصروا في مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين" ابن الجوزي، المنتظم، جـ ١١، ص ٢٦٥.

٣ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٢٥.

٤ - مسكويه، تجارب الأمم، جـ ٤، ص ٢٩٩. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ١١، ص ٢٣٧

٥ - المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٤٥١.

٦ - أشار له الحموي في معجم الأدباء، جـ ٥، ص ١٩٨.

٧ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٦٧

٨ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٩٤. نوري، الجاحظ، ص ٢.

٩ - النجم، الجاحظ، ص ١٢٥

١٠ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢٠

وربما قاده ذلك أيضا إلى الإسهام في الدعاية الإعلامية لهم وصياغة مقولاتها والمشاركة في توجيهها[١]. فقد كلفته السلطة مرات عديدة وضع الكتب والرسائل في موضوعات أرادتها أن تذاع وتنتشر بين جمهور الناس[٢]. فكان دفاعه من خلال كتبه ورسائله، مما نال حظوة لدى الخلفاء وبدأ يتردد عليهم ويجتمع بهم في أروقة الخلافة للتناظر والتباحث[٣].

أضف إلى ما سبق أن الجاحظ جادل فرقاً ومِللاً مختلفة مستخدماً العقل في إثبات حق العباسيين في الخلافة[٤] بسبب صلته بهم ومخالطته لهم[٥]؛ تأكيدا لميوله السياسية التي كانت تتأثر بين الفينة والأخرى بمراحل التحول السياسي والفكري التي شهدها وعايشها الجاحظ نفسه. حتى أن الجاحظ إذا ما ناظر فرقة فإنه يرمي كل ثقله الفكري وبكل أدواته البلاغية والمنطقية، حتى يكاد يوهم قارئه بأنه هو مبتدع هذه العقيدة أو الفكرة وليس غيره، وهو أمر عكس في الوقت نفسه سعة ما امتلكه الجاحظ من أخبار ومرويات ومعلومات وأفكار تصلح لتوظيفها لأية أغراض سياسية في كل وقت وحين، مع قدرة كبيرة على المحاجة المنطقية تسلح بها في معظم كتاباته[٦].

عمد المتوكل إلى إحداث انقلاب في النواحي السياسية وما اتصل بها من جوانب فكرية أو دينية[٧]. من ذلك إظهار الخصومة للعلويين[٨]، والتشدد إزاء أهل الذمة[٩]. وقد أسهم الجاحظ في هذه السياسة بالترويج لها وتدعيمها في رسالتيه: "العثمانية" و"الرد على النصارى".

شملت إجراءات المتوكل إبعاد كافة المعتزلة عن المواقع الدينية وعن مواقع السلطة[١٠]، والتي سلم منها الجاحظ. إذ عد الجاحظ سياسة المتوكل الخاصة بإبطال القول بخلق القرآن، بأنها نقت الدين من شوائبه، وأنها المثلى في هذا الباب؛ فأثنى عليها ، مع أن واحدة من أهم

---

١ - الحاجري، طه محمد. الجاحظ حياته وآثاره، دار المعارف، القاهرة: ١٩٦٢م، ص ٢٧٨ (سيشار إليه فيما بعد: الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره).

٢ - نوري، الجاحظ، ص ٢

٣ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ١٥

٤ - المرجع نفسه، ص ٢١

٥ - أبو الفداء، المختصر، جـ ١، ص ١٧٩.

٦ - نوري، الجاحظ، ص ٣

٧ - المرجع نفسه، ص١٤

٨- الطبري، تاريخ، جـ ٩، ص ١٨٥. - نوري، الجاحظ، ص ١٤

٩- الطبري، تاريخ، جـ ٩، ص ١٧١ وما بعدها. - نوري، الجاحظ، ص ١٤

١٠- الطبري، تاريخ، جـ ٩، ص١٧٩. نوري، الجاحظ، ص ١٤

مقولات المعتزلة في أصل التوحيد هي القول بخلق القرآن ونفي قدمه، وأن للجاحظ نفسه رسالة في خلق القرآن، أشار فيها إلى أن القرآن مخلوق، وأن خلقه على الحقيقة لا على المجاز[1]. فامتدح سياسة المتوكل في هذا الجانب، ومعنى ذلك وقوع الجاحظ في تناقض مع آرائه، ولم يكن موقفه هذا من قبيل التراجع الفكري، لأنه لم يعارض أفكاره السابقة بمقولات جديدة، تؤشر قبوله بفكرة قدم القرآن ونفي خلقه، بل كان موقفه هذا من قبيل المحاباة للسلطة والسير مع التيار[2].

مؤلفاته[3]

يعد كتاب الحيوان من أهم مصنفات الجاحظ، وقد كتبه أهدى الكتاب إلى ابن الزيات وأعطاه مقابله خمسة آلاف دينار، هذا مع العلم أن ابن الزيات قتل عام ٢٣٣هـ / ٨٤٧م[4] مما يعني أن الجاحظ قد فرغ من كتابه قبل تلك السنة، لكن الإشارات التي ترد داخل الكتاب توحي أن الجاحظ قد أكمل باقي أجزاء الكتاب بعد ذلك التاريخ، وأنه لم يهدِ ابن الزيات كافة أجزاء الكتاب، خاصة وأنه تناول في كتابه الخليفة المتوكل (٢٣٢هـ - ٢٤٧ / ٨٤٦-٨٦١م) مما يعني أنه فرغ من الكتاب بأجزائه السبعة حوالي عام ٢٤٧هـ / ٨٦١م[5]؛ وتفسير ذلك أن الجاحظ بدأ في الكتاب منذ فترة مبكرة من حياته، لكن لم يكمله إلا في أواخر حياته مبرراً اضطراب بعض فصوله بسبب حالة المرض التي أقعدته عن الحركة، حيث قال: " **وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه، أولى ذلك العلة الشديدة، والثانية طول الكتاب**"[6]. خاصة أن الجاحظ في

١- الجاحظ، رسالة الحنين إلى الأوطان، جـ٣، ص٢٨٩ . نوري، الجاحظ، ص ١٥

٢ - نوري، الجاحظ، ص ١٥

٣ - تناولت العديد من الدراسات مصنفات الجاحظ، ومن أشهرها دراسة الدروبي (آثار الجاحظ) كما سبق ذلك العديد من المحاولات لإحصاء آثار الجاحظ من ذلك ما قام به شارل بلا، والسندوبي وجبر وعلي ملحم، لذا نرى أنه لا داعي للخوض في تلك التفاصيل وإنما نشير بإيجاز لمصنفات الجاحظ من خلال أبرز ما أحتوى عليه كل مصنف.

٤ - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت: ٣١٠هـ / ٩٢٢م). تاريخ الطبري، مراجعة وتقديم نواف الجراح، دار صادر، بيروت: ٢٠٠٣م، جـ ٥، ص ٢٩٥(سيشار إليه فيما بعد: الطبري، تاريخ).

٥ - الدروبي، آثار الجاحظ، ص ٩٠- ٩١

٦ - الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت٢٥٥هـ/ ٨٦٩م). الحيوان، تحقيق يحيى الشامي، دار ومكتبة الهلال، بيروت: ٢٠١٠م، جـ ٤، ص ١٤٦ .(سيشار إليه فيما بعد: الجاحظ، الحيوان).

هذا الكتاب يعمد إلى التجريب في حالة أنه شك بأمر ما، وكم من نظرية فَنَّدها بعد أن قام بتجربتها بنفسه[1]، لكن حالة المرض التي أصابته في أواخر حياته أقعدته عن ذلك.

احتوى الكتاب على مواقف الجاحظ السياسية من الدولة الأموية والعباسية ومن الفرق، كذلك ضمنه الجاحظ موقفه الفكري الاعتزالي، لقد جمع في كتابه الحيوان بين دقة العالم وانطلاقة الأديب وعقلانية المعتزلة، حيث ضمنه مختلف المعارف والروايات السائدة في عصره وما سبقه، وأبدى فيها آرائه، وقدمه بلغة أدبية، بعيدة عن جفاء اللغة العلمية، وبألفاظ جميلة مناسبة، وبأسلوب سهل مبسّط.

الكتاب الثاني البيان والتبيين واعتمدت الدراسة عليه في مناحي مختلفة ومن أهمها موضوع الفرق الإسلامية خاصة في حديثه عن الشعوبية، فكان الجاحظ بين الفينة والأخرى يتكلم عنها في كتابه، حتى أنه خصص أجزاء من الفصل الثاني والثالث لمناقشة الحركة الشعوبية. في الوقت نفسه فإن الجاحظ سعى في الرد على الشعوبية من خلال الرفع من شأن اللغة العربية والوقوف في وجه التيارات التي تسعى إلى التنقيص من شأنها ومن شأن العرب. واحتوى الكتاب على روايات تاريخية سواء للعصر الأموي أم العباسي، حتى وإن جاءت الروايات ناقصة لكن الملاحظات التي تأتي في سياق الكلام بعدها تعطي صورة عن الحال في تلك الفترة.

كذلك من كتبه البخلاء الذي أحتوى على التصوير الحسي للواقع في الجياه العامة والخاصة، وقد كثر في الكتاب الروايات والقصص التي تعكس حال طبقة من المجتمع.

أما رسائل الجاحظ فتجاوزت الخمسين رسالة، ومن أهم الرسائل التي اعتمدت عليها الدراسة والتي تضمنت في ثناياها نصوصاً تاريخية تتعلق بموضوع الدراسة.

أ. رسالة النابتة

ومحورها الأساسي ذم بني أمية، أرسلها إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد[1]. والملاحظ أن هذه الرسالة لم تأخذ منحى رسائل الجاحظ الأخرى التي تتسم بعبارات تفيض بالأدب والحكمة والبيان. أما تاريخ كتابتها فيقع في حوالي سنة ٢٢٣هـ / ٨٣٧م[2].

---

١ - احتوى الكتاب على الكثير من التجارب التي أثبت الجاحظ بطلانها، ومثال ذلك في نفيه نظرية طول عمر البغال على الذكور، الجاحظ، الحيوان، جـ ٥، ص ١١٥. كذلك نفيه نظرية أن البلبل لا يستقر بل دائم الطيران، جـ ٥، ص١٢٤. وسقي الخمر للإبل، جـ ٢، ص ٥٥.

ب. رسالة فضل هاشم على عبد شمس

وضع الجاحظ هذه الرسالة في أول خلافة الواثق[3](٢١٧- ٢٣٢هـ/ ٨٣٢-٨٤٦)[4]، ونال فيها من الأمويين؛ حيث كانت من رسائل المفاخرة التي دأب الجاحظ على اعتمادها في موضوعات عديدة أخرى[5]، ويعتمد في أسلوب المفاخرة[6] على الحجج المتقابلة، عرض في هذه الرسالة حجج الأمويين ودعواهم. سعى الجاحظ في هذه الرسالة إلى الظهور بمظهر الحياد إلا أنه سرعان ما أظهر تأييده للعباسيين من خلال نسفه لحجج الأمويين لصالح بني العباس[7]. لذا جاء عموم موقفه من الأمويين في إطار تسويغ استيلاء العباسيين على السلطة، الأمر الذي استوجب أن يلقي باللائمة على الأمويين في هذه الرسالة.

ت. رسالة الحكمين، وتصويب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في حكمه

كتب الجاحظ الرسالة في الفترة الواقعة بين عام ٢٢٧هـ - ٢٣٢هـ / ٨٤١-٨٤٦م[8] تناول فيها الخلاف الذي نشب بين الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ومعاوية بن أبي سفيان حول الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان - رضي الله عنه-، وقد حرص الجاحظ خلال استعراضه للخلاف على إبراز دور معاوية واستغلاله حادثة مقتل عثمان - رضي الله عنه -[9]،

---

١ - تولى القضاء بعد أن فلج والده في أول خلافة المتوكل، واستمر قاضيا حتى عزله المتوكل سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٨٣-٩١.

٢ - الدروبي، آثار الجاحظ، ص ١٢٥

٣- الدروبي، آثار الجاحظ، ص ١٦٣.

٤ - الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٧٣، ص ٢٩٢.

٥- مع أنه استنكر أسلوب المفاخرة بقوله: "وليس أدعى إلى الفساد ولا أجلب للشر من المفاخرة". السندوبي، حسن. تحقيق بعض رسائل الجاحظ، المطبعة الرحمانية، مصر: ١٩٣١م، ص ٣٠٠(سيشار إليه فيما بعد: السندوبي، رسائل الجاحظ).

٦ - ومن رسائل الجاحظ والتي كتبها أيضا في المفاخرة: رسالة مفاخرة الجواري والغلمان ورسالة مفاخرة السودان على البيضان.

٧- هذا الأسلوب انتهجه الجاحظ في أغلب صفحات الرسالة، انظر مثلا: ص ٤١٧، ٤٢٣.

٨ - الدروبي، آثار الجاحظ، ص ٨٢

٩- نورد مثالاً على ذلك: "أخذ النعمان بن بشير أصابع نائلة امرأة عثمان التي قطعت وقميص عثمان الذي قتل فيه وهرب به فلحق بالشام، فكان معاوية يعلق قميص عثمان وفيه الأصابع، فإذا رأى ذلك أهل الشام

والذي بلغ ذروته في معركة صفين وما آلت إليه من التحكيم، ثم ما تبع ذلك من الانقسام والفرقة بين المسلمين "ثم ما زالت الفتن متصلة، والحروب مترادفة، كحرب الجمل[1]، وكوقائع صفين، وكيوم النهروان"[2].

ث. رسالة العباسية

نشر السندوبي الرسالة مقتضبة في حوالي خمس صفحات وتبعه في ذلك الحاجري وعبد السلام هارون وعلي أبو ملحم، ولا بد أن جزءاً منها مفقود[3]، فالجاحظ في تناوله قضية الإرث لا يمكن أن يكتب رسالة بهذا الإيجاز خاصة وأن الفترة التي كتب فيها الرسالة تحتاج إلى تدعيم موقف العباسيين في قضية الخلافة في وجه الحركات التي ترى أن لا حق لهم فيها[4]، كما أن العبارات المستخدمة في الرسالة توحي بأن الجاحظ عازم على تفصيلها مثل عادته في ثنايا الرسالة بدليل أنه بدأ في رسالته بموضوع ميراث الأنبياء وما قام به أبو بكر - رضي الله عنه - في منع فاطمة ميراثها من والدها، فموضوع الميراث يعد منطلقا للجاحظ للحديث عن موضوع الإمامة وحق العم في الميراث وهذا لا يتأتى في صفحات موجزة على غير عادته في باقي رسائله[5].

ازدادوا غيظاً وجداً في أمرهم، ثم رفعه، فإذا أحس منهم بفتور يقول له عمرو بن العاص: حرك لها حوارها تحن، فيعلقها". ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ٢، ص٢٣.

١- وقعت بعد خروج عائشة أم المؤمنين وطلحة والزبير على خلافة علي – رضي الله عنهم - . انظر: الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص٦ - ٢٦.

٢- الجاحظ، رسالة في النابتة، ص٢٤٠.

٣ - في دراسة الدروبي أشار أن الرسالة نشرت من قبل السندوبي كما أعاد طه الحاجري نشرها مرة أخرى، كما أن الدروبي أكد أن الرسالة مقتضبة وذلك في دراسته المعنونة بآثار الجاحظ، لكن الدروبي اكتشف في عام ٢٠٠٢ م النسخة المخطوطة كاملة من الرسالة في برلين تحت رقم ٥٠٣٢، وبالتالي ظهر أن الرسالة عالجت قضية أخرى إضافة إلى مسألة الميراث، هذه القضية تتعلق بالعباسيين والثناء عليهم وذكر مناقبهم. انظر الدروبي، آثار الجاحظ، ص ١٦١. الدروبي، تحليل رسالة العباسية، الصفحات الأولى.

٤ - من تلك التيارات الإمامية والنابتة، والشيعة، انظر: نوري، موفق سالم. الجاحظ بين الدعاية السياسية للسلطة ومعتقده الاعتزالي (دراسة نقدية)، مجلة التاريخ العربي، العدد ١٩، الموصل: ٢٠٠١م، ص٦(سيشار إليه فيما بعد: نوري، الجاحظ). هياجنة، إيمان عبد الرحمن. الجاحظ مؤرخاً(١٦٠هـ - ٧٧٦م / ٢٥٥هـ - ٨٦٩م)، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب، الجامعة الأردنية: ١٩٩٦م، ص ٢١ (سيشار إليه فيما بعد: هياجنه، الجاحظ مؤرخاً). الزويري، محجوب أحمد سليمان. الإمامة عند الجاحظ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان: ١٩٩٥م، ص (ط)، ص٣٢ (سيشار إليه فيما بعد: الزويري، الإمامة).

٥ - انظر: الجاحظ، رسالة العباسية، ص ٤٦٥- ٤٧٠.

ج. رسالة في مناقب خلفاء بني العباس

تتكون الرسالة من حوالي خمس عشرة صفحة، أما عن تاريخ كتابتها فإنه بسبب عدم وجود إشارات تاريخية لسنة كتابتها كما هو الحال عند باقي آثار الجاحظ فإنه من خلال الإشارات التي وردت في الرسالة مثل قضية خلق القرآن، واستباحة الزط، وفتح عمورية والقضاء على ثورة بابك الخرمي وغيرها، فإنه يقدّر تاريخ كتابتها بعد خلافة المعتصم أي بعد سنة ٢٢٧هـ/ ٨٤١م، فربما وجهها إلى الخليفة الواثق متقربا منه، ظلت الرسالة مفقودة حتى عام ٢٠٠٣م عندما تمكن محمد محمود الدروبي من العثور عليها ضمن النسخة الخطية من الرسالة في مكتبة برلين تحت رقم ٥٠٣٢.[١]

ح. رسالة العثمانية

وضعها الجاحظ بعد "العباسية" بحدود عام ٢٣٢ هـ/ ٨٤٦م[٢] في أول عهد المتوكل، عندما تحولت الدولة إلى موقف مناوئ ومناهض للعلويين[٣]. نجد في الرسالة خصومة شديدة للشيعة، وتفنيداً لآرائهم في العديد من مسائل الإمامة[٤]، ومقدماً في الوقت نفسه كماً كبيراً من الحجج والآراء التي أكدت أفضلية أبي بكر- رضي الله عنه - وأحقيته في الخلافة[٥]، وهو الذي كان قد انتقد الكثير من سياسته في رسالته السابقة "العباسية" فجاء هذا التحول انسياقاً وراء تقلبات مواقف السلطة الحاكمة ومتطلباتها.

مرضه ووفاته

توفي الجاحظ في البصرة[٦] في شهر محرم سنة (٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م)[٧] وقد جاوز التسعين. فبعد أن أصيب بمرض الفالج عاد إلى مسقط رأسه يقضي بقية حياته ويتفرغ للكتابة،

---

١ - الدروبي، محمد محمود. رسالة جديدة للجاحظ في مناقب خلفاء بني العباس، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، حولية رقم ٢٣، قسم اللغة العربية، جامعة آل البيت، الأردن: ٢٠٠٣م، ص ١٣(سيشار إليه فيما بعد: الدروبي، رسالة مناقب بني العباس).

٢ - الدروبي، آثار الجاحظ، ص ١٠٣

٣- الحاجري، رسائل الجاحظ، ص ١٨٧.

٤- الجاحظ، العثمانية، ص ١٢٩، ١٤٤.

٥- المصدر نفسه، ص ١٤٠.

٦ - الطبري، تاريخ، جـ ١١، ص ٦٩.

٧ - المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢، ص١٢٣. ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني(ت: ٦٣٠هـ/ ١١٦٠م). الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت: ١٩٨٢م، جـ ٣، ص٢٧٤ (سيشار إليه فيما بعد: ابن الأثير، الكامل في التاريخ).

إذ أنه أتم كتبه الحيوان والبيان والبخلاء وبعض رسائله وهو مفلوج في البصرة[1]، وصف يموت بن المزرع حال الجاحظ قبيل وفاته بقوله: "دخل إليه ناس وهو عليل، فسألوه عن حاله فقال:

عليل من مكانين من الإفلاس والدين"[2]

"أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب"[3]

ثانياً: منهج الجاحظ ودوره في الكتابة التاريخية

لقد برع الجاحظ في الكتابة إذ تعد كتبه موسوعية تضمنت جوانب مختلفة ومتنوعة، كما تفرد بمنهج سار عليه الكثير من الكتاب الذين اقتفوا أثره ومنهجه في الكتابة. كما عمل الجاحظ على تكوين رؤيةً خاصة به، لمختلف هذه المعارف والآداب والعلوم[4].

إن المنهج الذي سار عليه الجاحظ في كتاباته ومن خلال مصنفاته يتمثل في تعدد المصادر التي يعتمد عليها ويأتي القرآن الكريم[5] في المرتبة الأولى، فمنه يستوحي أفكاره

---

١ - أشار بلا أن حادثة موت الجاحظ بسقوط الكتب عليه ذكرت من قبل بعض المؤرخين المتأخرين دون أن يحدد أسمائهم، وكأنه يلمح إلى الشك في صحة تلك الرواية. انظر: بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص٣٧٩.

أما الدروبي فذكر أن وفاة الجاحظ كانت بعد أن ظل يغالب مرض الفالج والنقرس سنينا من عمره، ولم تكن وفاته بسبب وقوع كتب عليه، إذ أن المصادر المعاصرة للجاحظ سواء في القرن الثالث أم الرابع الهجري مثل مؤلفات ابن قتيبه، والمبرد، ويموت بن المزرع لم تشر إلى هذه الحادثة وإنما جاء ذكر الحادثة في مصادر متأخرة في القرن الثامن الهجري مثل مختصر أبو الفداء وابن الوردي وابن العماد الحنبلي. الدروبي، ضوء على مرض الجاحظ ووفاته. مجلة المنارة، المجلد ١٠، العدد ٣، جامعة آل البيت، الأردن: ٢٠٠٤م، ص٣٧٩-٣٨١ (سيشار إليه فيما بعد: الدروبي، مرض الجاحظ). كما ناقشت هياجنه، الجاحظ مؤرخاً حالة الجاحظ بعد إصابته بالمرض، وذكرت أن عددا من الناس منهم الكتاب والأدباء قاموا بزيارته ووصفوا حالته، الجاحظ مؤرخا، ص ٧٥.

٢ - المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢، ص١٢٣

٣ - الحموي، معجم الأدباء، جـ٦، ٧٩. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٣، ص٤٧٣. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١١، ص ٢٤.

٤- عزت، فلسفة الأخلاق، ص٢٠.

٥- يوهم العنوان الخاص بكتاب الحيوان أنه مقصور على الحيوان، إلا أن الكتاب يتضمن علوما ومعارف أكبر من العنوان، فقد أطنب المؤلف في ذكر آي القرآن الكريم، يقول في ذلك " "حجة على الملحد، وتبيان للموحد، قائم بالحلال المنزل، والحرام المفصل، وفاصل بين الحق والباطل، وحاكم يرجع إليه العالم والجاهل، وإمام تقام به الفروض والنوافل، وسراج لا يخبو ضياؤه، ومصباح لا يخزن ذكاؤه". الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص ٢٢٥. كما أشار الجاحظ إلى الصم في القرآن الكريم، الحيوان جـ٤، ص٧١٠. علي. محمد كرد، أمراء البيان، ط ٢، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة: ١٩٤٨م، جـ ٢، ص ٣(سيشار إليه فيما بعد: علي، أمراء البيان).

ويقتبس تعابيره فهو المحرك الأول لفكر الجاحظ، ثم يأتي بعد ذلك الحديث النبوي الذي استعان به في تراثه كما أفرد له رسالة حجج النبوة[١]، والتوراة[٢] والإنجيل: "**ولم استدل على ذكره في التوراة والإنجيل والزبور**"[٣].

كما تمثل منهجه في الاطلاع على كافة كتب المعرفة على اختلاف أنواعها وموضوعاتها، وجمع منها مجاميع ، كما استعان في كتاباته بعلوم اليونان، وأدب فارس وحكمة الهند، والتراث العربي قبل الإسلام، بالإضافة إلى ذلك مشاهداته وملاحظاته الخاصة وحضوره حلقات المناظرة والمساجلات الشعرية؛ ثم اكترائه دكاكين الوراقين والمبيت فيها وقراءة كل ما يقع تحت يده من شتى العلوم والفنون وحضوره الحلقات المسجدية للوعاظ والصوفية والأدباء والرواة والمناظرات والمساجلات الشعرية[٤]، كما اعتمد على المقربين من السلطة للتعرف إلى ما يدور من خفايا ورسم صورة عن الأوضاع السياسية السائد في تلك الفترة[٥].

لقد استفاد الجاحظ من كتابات أرسطو في الجوانب العلمية والمعرفية[٦]، وهذا ما أدى أن أن يتبع الجاحظ منهجا يتميز بالعقل والمنطق، إذ صرح نقله عن أرسطو في أكثر من ستين موضعاً من كتاب "الحيوان"[٧]، كما تعمد في كثير من الروايات نقلها كما هي حتى يحافظ عليها كما رويت عن أصحابها[٨]. ومن المؤكد أنه ترك مواضع أخرى لمح لها تلميحاً، أو تعمد إغفالها

١- في كتاب الحيوان ذكر الجاحظ أكثر من خمسين حديثا نبوياً، انظر مثلا: الحيوان، جـ ١، ص ١٦، ٧٤، ٨٥، ١١٣. كذلك في البيان والتبيين استشهد بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في مواضع مختلفة انظر مثلا: جـ ١، ص ٣٧، ٣٨، ٦٥، ٧٣.

٢ - الجاحظ، الحيوان جـ ١، صـ٥٩؛ جـ ٤صـ ٢٩٢، ٣٥٦، ٣٥٨، ٤٧٣. الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، صـ٥٣، جـ ٣، صـ ١٣٩، الجاحظ، رسالة في النابتة، ص٢٤٩.. الجاحظ، رسالة الحنين إلى الأوطان، ص٢٧٠، صـ ٣٠٦، صـ ٣١٤، ص ٣٢٩.

٣- الجاحظ، رسالة في النابتة، ص٢٤٩. الجاحظ، رسالة في الحنين إلى الأوطان، صـ ٣٠٧، صـ٣٢٨، صـ٣٣٠، الجاحظ، الحيوان، جـ ١، صـ ٥٥، جـ ٤، ص ٤٦. الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، صـ ١٣٩.

٤ - جبري، الجاحظ، ص ٣٤٢

٥ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٧٥

٦- كريم، سامح. الحيوان بين أرسطو والجاحظ، مجلة العربي، العدد٥٣٦، الكويت، ٢٠٠٣م، ص٦٣ (سيشار إليه فيما بعد: كريم، الحيوان). الدروبي، موقف الجاحظ، ص ٥١

٧- انظر مثلا: الجاحظ، الحيوان، جـ ٣، ص ٢٥٢.جـ ٥، ص١١٥. جـ ٧، ص ١٧١، ص ١٨٢. انظر أيضا: الدروبي، موقف الجاحظ، ص ٥٤

٨ - مردم، الجاحظ، ص ١٨

"إن كنت سبعاً فاذهب مع السّباع، وعليك بالبراري والغياض، وإن كنت بهيمة فاسكت عنّا سكوت البهائم ولا تنكر قولي وحياتي عنه بقول ملحون"[1].

يتصف منهج الجاحظ بأنه لا يعير الإسناد أهمية[2]، ولعل السبب في ذلك تعدد المصادر التي يستقَي منها الجاحظ مادته، كما أنه صرح بأن ليس كل الروايات بحاجة إلى الإسناد، فها هو يتندر حول مسألة الإسناد بقوله: **"كانت العنزة التي تحمل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلّم- وربما جعلوها قبلة- أشهر وأذكر من أن يحتاج في تثبيتها إلى ذكر الإسناد"**[3]، فقد كان يذكر سنده في مرات ويتجاهله في مرات أخرى[4]. لأن مسألة التوثيق في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي لم تكن مما يشغل أهمية عند الأدباء والكتاب[5]. فكلمة قال التي كثيرا ما يذكرها أوحت له بأنها تغني كسند لرواياته مثل قوله **"قال ابن مناذر: أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن وأكثرها له موافقة"**[6].

فيعمد إلى الاختصار في الرواية[7]. أما تنوع الإسناد الذي يذكره وتعدده حتى ضمن الرواية الواحدة فمرجعه تعدد المصادر التي يستقي منها مادته بغض النظر إن كانت مشافهة أو سماعاً[8]. الذي يعتبره من أصول التحقق من الرواية[9].

كما يتفرد منهج الجاحظ في الكتابة التاريخية بصور مختلفة ومتباينة، مثل البلاغة والإيجاز أو التقليل من الألفاظ، والإطالة الإطناب[10]، وبين لحن العامة وفصاحة الخاصة،

---

١ - الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص ١٨٦.

٢ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٧٢

٣ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٦٥

٤ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١٩٦، ١٩٨

٥- الدروبي، محمد محمود. التهم الموجهة إلى الجاحظ، مجلة عالم الفكر، المجلد٣٥، الكويت: ٢٠٠٧م، ص٢٤٥-٢٤٦.(سيشار إليه فيما بعد: الدروبي: التهم الموجهة). انظر: الدروبي، موقف الجاحظ، ص ٥٤

٦ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٤٠. انظر البيان والتبيين: جـ ١، ص ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣٢. الحيوان، جـ ١، ص ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٢٩.

٧ - أشارت هياجنه أن حذف السند من رواية الجاحظ هدف منها تقليل حجم الرواية حتى يبعد الملل عن القارئ. الجاحظ مؤرخاً، ص ٧٤.

٨ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٧٣

٩ - الجوزي، مكان العقل، ص٢٧٥

١٠- انظر مثلا: الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص: ٤٧، ٨٧، ١٣٤. رسالة الحنين إلى الأوطان، جـ ٣، ص١٢٥، ١٣٨، ١٤٧، وهذا الأسلوب منتشر في مؤلفاته. مردم، الجاحظ، ص ٢٠

والتوفر على الموضوع الواحد والاستطراد[1]، والاستنباط والاستشهاد، والقياس المنطقي والانطباع الذاتي، والرصانة الجهمة والسخرية التهكمية، والرواية والمعاينة الذي يمتلئ تراثه بها[2]، والسرد والحكاية، والتجريد والتصوير الحسي[3]. كما يتميز منهجه بتعدد مصادره الشفوية للراوية الواحدة[4] إذ حظ على ضرورة التثبت من الرواية، فإذا شك في صحتها فإنه يبحث لها عن عدة رواة وفي كل ذلك يكون الشك حاضرا في الرواية. كذلك تميز منهجه بدقة وقوة الملاحظة التي نمت وسط المجتمع الذي يعيش فيه ويعج بالمتناقضات والاختلافات[5].

وتكثر في منهجه الحجج الظاهرة والأدلة المترادفة مثال ذلك أنه يقابل الرواية بالرواية، كما يؤكد إلى أهمية إعمال الفكر في الرواية لأن ذلك من مقتضيات الحياة، وهذا من أسس علم الكلام عند المعتزلة **" ثم جعل تعالى وعز، هاتين الحكمتين بإزاء عيون الناظرين، وتجاه أسماع المعتبرين، ثم حث على التفكير"**[6]. كما تتميز الروايات التي يوردها بقوة التمثيل، حتى يشعرك أنه أحد الحضور في تلك الواقعة[7]، مثل روايات عديدة ذكره في هذا السياق ونخص بالذكر روايته عن أحمد بن حنبل في مجلس المعتصم[8]. كما يتضح أسلوبه من خلال هذه الرواية في التهوين والتقليل فهو متكمن من أسلوب التضخيم والتهوين في الروايات التي يسوقها[9].

أما منهج روايات الجاحظ فإنها لا تأخذ نسقا واحدا من حيث الطول والقصر اعتمادا على الموضوع الذي يعالجه، فقد يحتم الأمر أن يطول كما في وقوفه ضد الشعوبية[10]، أو

١- قلما يستطيع الجاحظ الابتعاد عن الاستطراد خاصة في كتاب الحيوان والبيان والتبيين. انظر: الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص٧٦، ٩٨، جـ ٧، ص٩.

٢ - الجوزي، مكان العقل، ص ٢٧٢. حموده، عبد الوهاب. أسلوب الجاحظ، مجلة نور الأدب، العدد ٦، لبنان: ١٩٩٥م، ص ٦٦(سيشار إليه فيما بعد: حموده، أسلوب الجاحظ).

٣- أغلب كتاب الحيوان يقوم على التصوير الحسي، من خلال تصوير المشاهد للقارئ وكأن ما يقرأه يشاهده أمامه. الجوزي، مكانة العقل، ص ٢٧١ . مردم، الجاحظ، ص ٢٠

٤ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٧٤

٥ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣١٤

٦- كثيراً ما تتردد كلمة التفكير في كتبه، فهو يحض على ضرورة إعمال العقل والتفكير، ولا يستبعد أن يكون ذلك منطلقا من نزعته نحو التفكير، وردت كلمة التفكير عنده أكثر من ثلاثين مرة. الجاحظ، الحيوان، جـ ٦، ص ٣٦٧

٧ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٧٦

٨ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٢٩٢

٩ - مردم، الجاحظ، ص ١٧

١٠ - تناولها في معظم مؤلفاته وخاصة البيان والتبيين، انظر الفصل الرابع من الدراسة محور الشعوبية.

يقصر مثل حديثه في الدعابة والعادات[١]. كما تتميز بالاختلاف والتباين؛ فقد احتوت روايات الجاحظ على الأشعار والخطب والمصطلحات الخاصة بالنظم العربية الإسلامية وغيرها[٢].

أنتهج الجاحظ أسلوبا خاصا في تحري الدقة وفي نقل الروايات بسبب انتمائه إلى فرقة المعتزلة التي تحكم العقل في كل شأن[٣] بقوله: " **وإنما سمي العقل عقلاً وحجراً قال تعالى - " هل في ذلك قسمٌ لذي حجر " - لأنه يزم اللسان ويخطمه ويشكله ويربثه ويقيد الفضل ويعقله عن أن يمضي فرطاً في سبيل الجهل والخطأ والمضرة كما يعقل البعير ويحجر على اليتيم**"[٤]. فكان لا يقبل الروايات كمسلمات بل أنه كان يخضعها للعقل فيحلل ويعلل رواياته مثل كتاب القضية بين علي ومعاوية[٥]، ويعمد إلى التحري والتدقيق بنفسه إذا أتيح له ذلك؛ ولم يقتصر تحريه على الجانب الأدبي بل شمل أيضا الجانب العلمي، وخير مثال على ذلك أن أحدهم ذكر نوعاً من العشب يقتل الأفعى برائحته إذا ألقيته عليها فاستحضر الجاحظ ذلك العشب، وألقاه على الأفعى وتبين له أن ما سمعه كان كذبا[٦]: " **وكان الذي حداني على ذلك ما رأيت الله قسم لك من الفهم والعقل وركب فيك من الطبع الكريم. وقد أجمعت الحكماء أن العقل المطبوع والكرم الغريزي لا يبلغان غاية الكمال إلا بمعاونة العقل المكتسب**"[٧]. لقد استفاد الجاحظ من الثقافات المعاصرة في ذلك الوقت ، بما يتفق مع منطقهِ وفكرهِ.

كما يقوم منهجه في رواياته على الحوار بين الشخصيات بهدف شد القارئ لها وتوجيهه فكريا أو سياسيا حسب ما يرى الجاحظ، وامتلأت كتب الجاحظ بهذا الأسلوب[٨] ومن أمثلة ذلك الحوار بين معاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن الزبير "**ذكر معاوية لابن الزبير بيعة يزيد، فقال ابن الزبير: إني أناديك ولا أناجيك، إن أخاك من صدقك، فانظر قبل أن تقدم، وتفكر قبل أن تندم، فإن**

---

١ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٠، ٨٢. الطاهري، علي. الجاحظ والاستطراد، مجلة اللغة العربية وآدابها، العدد ١٤، المجلد ١، كلية الآداب، جامعة الكوفة: ٢٠١٢م، ص ٣٥٨ (سيشار إليه فيما بعد: الطاهري، الجاحظ والاستطراد).

٢ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٧٥، ٧٦

٣ - الجوزي، مكان العقل، ص٢٧٧

٤- الجاحظ، رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ص ٨٨

٥ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٣

٦- الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص٨٦

٧- الجاحظ، رسالة المعاش والمعاد، ص٥٧.

٨ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٨

النظر قبل التقدم، والتفكر قبل التندم» . فضحك معاوية ثم قال: تعلمت أبا بكر السّجاعة عند الكبر، إن في دون ما سجعت به على أخيك ما يكفيك. ثم أخذ بيده فأجلسه معه على السرير"[1].

يعد الاستطراد[2] سمة غالبة على منهج الجاحظ، فما يبدأ غرضاً إلا تجاوزه إلى آخر ببيت شعر أو حديث أو آية أو غير ذلك مما يستشهد به[3]، ويقف عنده فيخرجه عن موضوعه إلى أغراض مختلفة حتى يتيه القارئ ثم يرجع به إلى الحديث الذي خرج عنه بعد أن ينسيه إياه[4]. فالثقافة الغزيرة والمعرفة الواسعة الوفيرة تجعله يدلف من موضوع إلى آخر وهو على بصيرة.

فالجاحظ لا يصبر على موضوع واحد، فإذا تكلم في شيء خرج منه إلى أخر، ومزج العلم بالأدب[5]. وأعترف بنفسه باستطراده دفعاً لسآمة القارئ وبعثاً إلى مواصلة القراءة، كما يقول:" وعلى أني قد عزمت- والله الموفق- اني أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه، بنوادر من ضروب الشعر، وضروب الأحاديث، ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب، ومن شكل إلى شكل؛ فإني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة، إذا طال ذلك عليها. وما ذلك إلا في طريق الراحة، التي إذا طالت أورثت الغفلة.وإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة، كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح، وما غايتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيرا "[6].

---

١ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص٢٤٨، جـ ٢، ص ٦٠، ص ٦٢، ص٦٤.

٢ - الاستطراد أن يأخذ المتكلم في معنى وقبل أن يتمه يأخذ في معنى أخر، ويسميه ابن المعتز حسن الخروج، أو الخروج من معنى إلى آخر. أبو العباس، عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي (ت: ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م). البديع في البديع، ط١، دار الجيل، بيروت: ١٩٩٠م، ص٣٦ (سيشار إليه فيما بعد: أبو العباس، البديع).

والاستطراد في اللغة مصدر " استطرد الفارس لقرنه" إذا طرد فرسه بين يديه يوهمه الفرار. لسان العرب، جـ٨، ص١٣٩.

الاستطراد في الاصطلاح أن يكون الكاتب في غرض من أغراض الكلام من غزل أو مدح أو وصف أو غير ذلك فيخرج منه إلى غرض آخر. ابن معصوم، علي بن أحمد بن محمد معصوم الحسني الحسيني(ت: ١١١٩هـ / ١٧٠٧م). أنوار الربيع في أنوار البديع، تحقيق شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف: ١٩٨٦م، ص٦٧ (سيشار إليه فيما بعد: ابن معصوم، أنوار الربيع).

٣- حموده، أسلوب الجاحظ، ص٣٦.

٤- البستاني، بطرس. أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار الجيل: بيروت: ١٩٩٧م، جـ٢، ص٢٧٩. (سيشار إليه فيما بعد: البستاني، أدباء العرب).

٥- الطاهري، الجاحظ والاستطراد ، ص ٣٥٨. أمين، ضحى الإسلام. جـ١، ص ٢٩٦.

٦ - الجاحظ، الحيوان، جـ٢،ص ٢٥٨.

وقد يطول استطراده إلى عدة صفحات، وقد يقصر إلى بضعة أسطر، حيث دأب الجاحظ أن يرسل نفسه على سجيتها، فهو لا يتقيد بنظام محكم، ولا يلتزم نهجاً مستقيماً يحذوه، فهو دائماً ينتقل من باب إلى باب ومن أثر إلى أثر[1].

ويذهب الاستطراد بالجاحظ يميناً وشمالاً، فيتكلم في كل شيء **" ومتى خرج من آي القرآن صار إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكم عقلية، ومقاييس سداد، ثم لا يترك هذا الباب؛ ولعله أن يكون أثقل، والملال إليه أسرع، حتى يفضي به إلى مزح وفكاهة"**[2] . كما ساهم الاستطراد في قدرة المتلاعبين بتفكيك تراث الجاحظ، وذلك بوضع عنوان وخاتمة جديدة له مما يوهم القارئ أنه عمل مستقل للجاحظ[3].

وهذا دأب الجاحظ في كتبه وهو الاستطراد وعدم الاقتصار على موضوع واحد[4]، لكن رسائله تختلف، لأن الرسائل بطبيعتها معينة لموضوع محدد لا تسمح لعادة الاستطراد أن تدخلها وتشتت عناصرها، فكل رسالة وحدة قائمة بذاتها[5]، وهذه معينة في حالة البحث عن الروايات التاريخية التي من الممكن أن يجد الباحث فيها ضالته، ولا يتكلف في تتبع استطراد الجاحظ[6].

ويمكن أن نستشف غاية أكبر لدى الجاحظ من مجرد الاستطراد، فكان يرمي من وراء ذلك إلى بث مفردات كانت محظورة في العصر العباسي، وكل من يقول بها يتهم بالزندقة[7]. حيث إن ظروف المرحلة الزمنية التي كان بها الجاحظ تتطلب هذا النوع من الكتابة[8].

---

١ - الطاهري، الجاحظ والاستطراد، ص ٣٥٩- ٣٦٠

٢- الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص ٦٠

٣ - النجم، الجاحظ، ص ٩

٤ - المرجع نفسه، ص ١٥

٥- السندوبي، حسن. مقدمة رسائل الجاحظ الكلامية، المطبعة الرحمانية، القاهرة: ١٩٢٣م، ص٧ (سيشار إليه فيما بعد: السندوبي، مقدمة رسائل الجاحظ). الطاهري، الجاحظ والاستطراد، ص ٣٦٠

٦ - ترى وديعة النجم أن الجاحظ حتى في رسائله يقوم بالاستطراد لكن استطراده في رسائله لا يقارن بالكتب، إذ يكون استطرادا بسيطا في الغالب. الجاحظ، ص ١٦

٧- حمزة، يوسف. التعمية الأسلوبية في كتاب الحيوان للجاحظ، مجلة البعث، العدد ٢٨، دمشق: ١٩٨٢م، ص٢٤ (سيشار إليه فيما بعد: حمزة، التعمية الأسلوبية).

٨ - الطاهري، الجاحظ والاستطراد، ص ٣٦٢

ومن أمثلة استطراده حديثه عن تهذيب الأخلاق وترويض الأنفس حيث استغرق عدة صفحات من كتابه (تهذيب الأخلاق)، فيعرض الموضوع على النحو التالي: "وتكون الأخلاق إما **مذمومة أو محمودة. فأما الأخلاق المذمومة فإنها موجودة في كثير من الناس كالبخل، والجبن والظلم، والتشرر، فإن هذه العادات غالبة على أكثر الناس، مالكة لهم، بل قلما يوجد في الناس من يخلو من خلق مكروه، ويسلم من جميع العيوب، ولكنهم يتفاضلون في ذلك[1]. وكذلك في الأخلاق المحمودة، قد يختلف الناس ويتفاضلون، إلا أن المجبولين على الأخلاق الجميلة قليلون جدا. فأما المجبولون على الأخلاق السيئة فأكثر الناس، لأن الغالب على طبيعة الإنسان الشر. وينبه الجاحظ إلى أن هناك فروقا فردية بين الناس في قابليتهم لتعديل أخلاقهم المكروهة، وفي النواتج المتوقعة من تعديل أخلاقهم، فيذكر: (فالأخلاق المكروهة في طباع الناس، إلا أن فيهم من يتظاهر بها، وينقاد لها. وهم شرار الناس. وفيهم من ينبه بجودة الفكر، وقوة التمييز على قبحها فيأنف منها، ويتصنع لاجتنابها، وذلك يكون عن طبع كريم، ونفس شريفة"[2]**. حيث يستغرق في استطراده ما يقرب من خمسين صفحة حتى يعود إلى الرواية التي يتناولها.

كما أثرت عقديته الاعتزالية على منهجه من ناحية التحليل والتعليل[3]، من خلال التنقيب عن علة الرواية وما بها من علل تضعفها[4]، وهذا ملاحظ في تقليب الروايات حتى يصل إلى حكم عليها بالقبول أو الرفض. وفي بعض الأحيان يشك برواية الخبر من خلال تحفظه عليه فهو لا ينكرها لكن يضع حولها تحفظات تؤكد شكوكه[5]؛ **"عامّيًا لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يستوجب التّكذيب والتّصديق، أو الشّكّ، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبّت في هذه الأجناس قطّ. وإمّا أن يلقوا راوية شعر، أو صاحب خبر، فالرّاوية كلّما كان الأعرابيّ أكذب في شعره كان أطرف عنده، وصارت روايته أغلب"[6].**

منهج الجاحظ في التصنيف يحبب القراء في المطالعة ويغريهم بالاستطلاع، ولم تكن تلك الطريقة مألوفة بل ابتكرها، فنسبت إليه وعرف بها في كتاباته وتصانيفه، وتقوم على إثارة الحس في القارئ بحسن اختيار المواضيع وخاصة تلك التي لم يتطرق لها من قبل، كما أن سهولة العبارة والألفاظ[7]؛ والترادف والاستطراد لأدني مناسبة، والخروج من الجد إلى الهزل

---

١ - الجاحظ، تهذيب الأخلاق، دار الصحابة للتراث، طنطا: ١٩٨٩م، ص٩ (سيشار إليه فيما بعد: الجاحظ، تهذيب الأخلاق).

٢ - المصدر نفسه، ص١٢.

٣ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٣

٤ - الجوزي، مكان العقل، ص٢٨١

٥ - عطية، عبد الرحمن. الشك المنهجي عند الجاحظ من خلال كتاب الحيوان، مجلة العلوم الإنسانية، العدد ٤، جامعة قطر: ١٩٩٢م، ص ١٥٦ (سيشار إليه فيما بعد: عطية، الشك المنهجي).

٦ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٦، ص ٤٤٦.

٧ - السندوبي، أدب الجاحظ، ص ٢٠٢. مردم، الجاحظ، ص ١٦

ومن العلم إلى الأدب والفكاهة، مما يذهب بسأمة القارئ ويكسبه قوة ونشاطاً، ثم التغلغل في البحث حتى يصل إلى الغاية التي يريدها والنتيجة التي قصد إليها[1]. هدف الجاحظ من هذا المنهج أن يظل موضع اهتمام القارئ عن طريق إبعاد السأم والضجر من نفسه، بواسطة الخروج من الجد إلى الهزل، حتى وإن كانت الأفكار غير متسلسلة وأيضا مع كثرة الاستطرادات[2].

إن البدايات التي يمكن أن نصف فيها إشارات الجاحظ في الجانب التاريخي تتمثل فيما رواه من اختلاف الناس حول الرواية الواحدة " **وإنما نزلت لك حالات الناس، وخبرتك عن طبائعهم، وفسرت لك عللهم لتعلم أن العدد الكثير لا يتفقون على تخرص الخبر الواحد في المعنى الواحد في الزمن الواحد، على غير التشاعر، فيكون باطلاً. وسأوجدك موضع اختلافهم واتفاقهم، وأنه لم يخالف بينهم في بعض الوجوه إلا إرهاصاً لمصلحتهم، ولتصح أخبارهم**"[3] مما يعني منهجا محددا سار عليه الجاحظ، إذ أن الرواة في الغالب لا يتفقون كما أشار الجاحظ على رواية واحدة، كما أن المصلحة الشخصية أو مصلحة العشيرة والقبيلة تقف سببا في عدم الاتفاق، كما تلعب الأهواء الشخصية دورا في تغيير الرواية[4]، إن اتفاق الرواة كما يرى الجاحظ مدعاة في كثير من الأحيان للخصام، كما وأن عدم اتفاقهم لا يعني في أي حال رفض الرواية وإنما ينبغي عليه أن يضيف عليها المعايير والأسس لقبولها أو رفضها "**ولا يصدق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، وأنه لا يعرف مصادر الراي من لم يشهد موارده**"[5]

وتميز منهج الجاحظ في الكتابة التاريخية بأنه لا ينتقي طبقة معينة بل ينتقل من واحدة إلى أخرى معددا أوصافها ووجوه اختلافها، فينتقل من الطبقة الشعبية إلى الارستقراطية. هذا الانتقال وهذا الوصف شمل روايات متعددة في المجالات التاريخية والاجتماعية وحتى الأدبية[6].

---

١ - حموده، أسلوب الجاحظ، ص ٥٦.

٢ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص٤. مردم، الجاحظ، ص ١٦. الطاهري، الجاحظ والاستطراد، ص ٣٦١

٣ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٢٤٨.

٤ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٩

٥ - الجاحظ، رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ص ٩١

٦ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣١٣

إن الدارس لمنهج الجاحظ يجده متشعباً متداخلاً فهو مزيج من أسلوب طرح الموضوع والتراكيب والعبارات[١]، وكذلك التنويع في الألفاظ، وقد أوضح أبو حيان التوحيدي[٢] الطريقة التي اتبعها الجاحظ في كتاباته لقوله: " **وأبو عثمان الجاحظ، فإنك لا تجد مثله، وإن رأيت ما رأيت رجلاً أسبق في ميدان البيان منه، ولا أبعد شوطاً، ولا أمد[٣] نفساً، ولا أقوى منه، إذا جاء بيانه خجل وجه البليغ المشهور، وكل لسان المصنفر الصبور، وانتفخ سحر العارم[٤] الجسور، ومتى رأيت ديباجة كلامه رأيت حوكاً[٥] كثير الوشي[٦]، قليل الصنعة، بعيد التكلف، مليح العطل[٧]، لـه سلاسةٌ كسلاسة الماء، ورقةٌ كرقة الهواء، وحلاوةٌ كحلاوة الناطل[٨]، وعزة كعزة كليب وائل، فسبحان من سخر لـه البيان وعلمه، وسلم في يده قصب الرهان وقدمه، مع الاتساع العجيب، والاستعارة الصائبة، والكتابة الثابتة، والتصريح المغني، والتعريف المنبي، والمعنى الجيد، واللفظ المفخم، والطلاوة الظاهرة، والحلاوة الحاضرة، إن جد لم يسبق، وإن هزل لم يلحق، وإن قال لم يعارض، وإن سكت لـم يعرض له**" [٩].

فالجاحظ لم يكن مؤرخا ولم يكن يعنيه التاريخ بقدر ما تعنيه معالجة الحدث الذي يتناوله بعيدا عن الميول والأهواء[١٠]، وفي كل الأحوال فقد جمع روايات عديدة كانت متداولة في البصرة عن الفرق والخطب والأقوام والجماعات ضمن تراثه[١١]، كما ذكر الكثيرين من رواته ممن سمع منهم حتى بصورة مقتضبة. كان الجاحظ يعرض فكرته على القارئ دون أن يشعره بالضجر أو بالملل بل ينقله تدريجياً من حدث إلى أخر ومن رواية إلى أخرى يخرج من

١ - عزت، فلسفة الأخلاق، ص ٣٠. مردم، الجاحظ، ص ١٦

٢ - أبو حيان: علي بن محمد بن العباس التوحيدي،(ت:٤٠٠ هـ /١٠١٠م) وكان متفننا في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة، وكان جاحظيا يسلك في تصانيفه مسلكه ويشتهي أن ينتظم في سلكه، فهو شيخ في الصوفية، وفيلسوف الأدباء. الحموي، معجم الأدباء، جـ٥، ص٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ١٤، ص٢٤٧.

٣ - أمد: الغاية كالمدى؛ أي منتهى عمرك، والأمد منتهى الأجل. لسان العرب، جـ ٣، ص٧٤

٤ - السحر: البيان في فطنة، لسان العرب، جـ ٤، ص ٣٤٨ والعرام: الشدة والقوة والشراسة، لسان العرب، جـ ١٢، ص ٣٩٥.

٥ - حوك: حاك الثوب، والشاعر يحوك الشعر حوكا: ينسجه ويلائم بين أجزائه، لسان العرب، جـ ١٠، ص٤١٨.

٦ - الوشي من الثياب يكون من كل لون، كناية عن التنويع في أساليب الكتابة والبلاغة. لسان العرب، جـ ١٥، ص ٣٩٢.

٧ - عطل: عطلت المرأة إذا لم يكن عليها حلي ولم تلبس الزينة على رقبتها، لسان العرب، جـ ١١، ص ٤٥٤.

٨ - ما على طعم العنب من القشر وإذا انقعت الزبيب فأول ما يرفع من عصارته هو السلاف، فإذا صب عليه الماء ثانية فهو النطل، لسان العرب، جـ ١١، ص ٦٦٦.

٩- التوحيدي، البصائر والذخائر، جـ١، ص ٢٣١ ـ٢٣٢.

١٠ - الجوزي، مكان العقل، ص ٢٨٥

١١ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١٩٨.

جد إلى هزل ومن شعر إلى طرفة حتى يشد القارئ له، ولا بد أن يراعي طبيعة من يخاطبه في رسائله وكتبه وهو ما نقله الحموي عن الجاحظ بقوله: " وقال الجاحظ: **ينبغي للكاتب أن يكون رقيق حواشي اللسان، عذب ينابع البيان، إذا حاور سدد سهم الصواب إلى غرض المعنى، لا يكلم العامة بكلام الخاصة، ولا الخاصة بكلام العامة**"[1].

لقد أشار الجاحظ إلى أهمية الحرص على جذب انتباه المتلقي والحرص على عدم السآمة أو الملل الذي قد يصيبه من طول الدرس " **ونقصد من ذلك إلى القصار دون الطوال، ليكون ذلك أخف على القارئ، وأبعد من السآمة والملل**"[2]، كما يطالب بالبعد عن التكلف "**وحذّره التكلّف واستكراه العبارة**"[3]، ويدعو لمراعاة الفروق بين المتعلمين[4] فلا ينبغي مخاطبة الخاصة بكلام العامة ولا العامة بكلام الخاصة "**فكذلك العامة، لا تعرف قصد القادة ولا تدبير الخاصة، ولا تروي معها، وليس يخرجها ذلك من عزمها، وما أبرمت من تدبيرها**"[5].

وعلى الرغم من أن الجاحظ لم يكتب كتاباً مستقلاً في التاريخ، إلا أن المتمعن في رواياته يلاحظ طريقة تحليل الروايات بمنهج المؤرخ الذي يشك ويعترض ويقارن بين الروايات، من ذلك قوله وهو يتحدث عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) "**ولكنا نظرنا في التاريخ فعرفنا عمره وابن كم كان يوم توفي، وعرفنا موضع اختلافهم واجتماعهم، فأخذنا أوسطه إذ كان أعدل ما فيه، وأسقطنا قول من كثر وقلل، ثم ألقينا منه سنيه إلى عام إسلامه، فوجدنا ذلك يوجب أنه كان ابن سبع**"[6] وانظر له أيضا وهو يتحدث عن الرواية ووجوب تمحيصها " **وهذه التأريخات والأعمار معروفة، لا يستطيع أحد جهلها، والخلاف عليها؛ لأن الذين نقلوا التاريخ لم يعتمدوا تفضيل بعض على بعض**"[7].

---

١ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ١، ص ٦٢

٢ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٤٣. انظر: الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص ٣١. جـ ٣، ص ٣. رسالة في الجد والهزل، ص ٢٥٣.

٣ - الجاحظ، رسالة المعلمين، ص ٢٠٦.

٤ - مردم، الجاحظ، ص ٢٣

٥ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٢٣٧. يقول الجاحظ في موضع أخر "والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث" الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٤١. انظر أيضا: جـ ١، ص١٢٩.

٦ - الجاحظ، رسالة العثمانية ص ١٩.

٧ - الجاحظ، العثمانية، ص ١٩.

إن الجاحظ لا يقبل الرواية حتى يحللها فإما أن يثبتها ويقبلها أو ينفيها، فقد انتقد ما ورد أن عائشة أم المؤمنين خرجت على بغلتها لتصلح بين حيين، فلقيها ابن عتيق[1] وسألها عن سبب خروجها فقالت له: "**أصلح بين هذين الحيين، فقال: والله ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل، فكيف إذا قيل: يوم البغل! فضحكت وانصرفت**"[2]. إن هذا الخبر برأي الجاحظ مصنوع لأنه أضيف إلى ابن عتيق وجُعِلَ نادرة ليشيع بين الناس، ولأن عائشة عرفت بطاعة الناس لها باعتراف علي نفسه فهي ليست بحاجة إلى أن تركب وتخرج من بيتها لتذهب إلى حيين وتصلح بينهما ويكفي أن ترسل إليهما فيجيئان إليها وتحكم بينهما[3]. ولم يعرف أن حربا نشبت بين حيين من قريش، وتدخلت عائشة لإصلاح البين ودفع الشر[4].

وعندما تعرض عليه رواية لا يقبلها عقله فإنه يعطي عددا من الأدلة التاريخية مفسرا وموضحا الأمر من كافة جوانبه[5]. وأهم جانب في السند التاريخي ومدى صدقه وأمانته " **لا يخلو الحديث من أن يكون مرضيّ الإسناد. صحيح المخرج، أو يكون مسخوط الإسناد، فاسد المخرج. فإن كان مسخوطا. فقد بطلت المسألة، وإن كان مرضيّا، فقد علمنا أنّه ليس في الحديث أنّه قُبِل**"[6].

كما يرفض الأخبار التي تتصف بالخوارق والعجائب لأنها تخالف منهجه العقلي[7] "**البحر كثير العجائب، وأهله أصحاب زوائد، فأفسدوا بقليل الكذب كثير الصدق، وأدخلوا ما لا يكون في باب ما قد يكاد يكون، فجعلوا تصديق الناس لهم في غرائب الأحاديث سلّما إلى ادعاء المحال**"[8] وإن كان في أحيان أخرى لم ينقدها بل قبلها كما في حديثه عن منارة مسجد أنطاكية "**أنّي رأيت الثلث الأعلى من منارة مسجد أنطاكية أظهر جدّة من الثلثين الأسفلين، فقلت لهم: ما بال هذا الثلث الأعلى أجدّ وأطرى؟ قالوا: لأنّ تنّينا ترفّع من بحرنا هذا، فكان لا يمرّ بشيء إلّا أهلكه، فمرّ على المدينة في الهواء، محاذيا**

---

١ - محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضي الله عنه معروف بالظرافة والدعابة والمزاح. انظر: ابن الجوزي، المنتظم، جـ ٦، ص ٨٨. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ١٧.

٢ - الجاحظ، البغال، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٧م. ص ٢٦.(سيشار إليه فيما بعد: الجاحظ، البغال). هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٤

٣ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٥

٤ - أدت معركة الجمل إلى حالة من الحرج لأهل البصرة، فهم موزعون بين الطاعة للخليفة الشرعي وواجب الولاء للسيدة عائشة وبين إرادة الحفاظ على وحدة الإسلام وبين إرادة تجنيب المدينة النتائج الوخيمة الناشئة عن اتخاذ موقف واضح في الخلاف وبين التضامن الإسلامي وروح القبيلة، هذا عدا عن الأمزجة الشخصية والعاطفية والخلافات على مستوى الأفراد. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٥٩.

٥ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٥

٦ - الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص ١٠٨.

٧ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٧

٨ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٧٨

لرأس هذه المنارة، وكان أعلى ممّا هي عليه، فضربه بذنبه ضربة، حذفت من الجميع أكثر من هذا المقدار، فأعادوه بعد ذلك، ولذلك اختلف في المنظر"[1]. وكذلك النظر إلى الراوي إذا كان متهما بالهوى والعصبية. وقد يصف الرواية بالجهل وقلة الحيلة ثم يناقش الرواية ويحللها[2]. فيقبل الروايات في حال أنها سايرت العقل والفطرة.

إن إيراد الجاحظ لبعض الروايات التاريخية التي لا يقبلها بهدف نقدها وعرض ما تحتويه من السقط والخطأ كما يحمل وزرها على من نقلها " هذه الرسالة التي كتبناها من الرواة منسوبة إلى من سميناها في صدرها. فإن كانت صحيحةً فقد أدينا منها حق الرواية، والذين كتبوها أولى بما قد تقلدوا من الحجة منها. وإن كانت منحولة فمن قبل الطفيليين"[3].

اعتمد الجاحظ على مبدأ الشك في قبول الروايات، عارضا أهميته في تراثه[4]، ومن ذلك قوله: " واعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً، فلو لم يكن في ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه. ثم اعلم أن الشك في طبقاتٍ عند جميعهم، ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات في القوة والضعف" [5]. فالشك هو التوقف قبل تقبل أو رفض أي رواية[6].

وقد طبق الجاحظ منهج الشك – كذلك- على العديد من الروايات التي نقلها عن الفرس والهنود، وكثيراً ما طالعنا بشكوكه التي تدور حول "الزعم" الذي دمغ به كثيراً من آراء أرسطو[7]، من مثل قوله: "زعم /تزعم الفرس...."[8]، و"زعم المجوس...."[9]، و" زعم زرادشت...."[10]، و" تزعم الهند...."[11]، و"زعم الهندي صاحب كتاب ألباه"[12]، تكشف العبارات عن موقف الشك الذي

---

١ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ٣٣٤.

٢ - عطية، الشك المنهجي، ص ١٥١

٣ - الجاحظ، رسالة القيان، جـ ٢، ص ١٨١.

٤ - عزت، فلسفة الأخلاق، ص ٢٤

٥- الجاحظ، الحيوان، جـ ٦، ص٣٥.

٦ - الجوزي، مكانة العقل، ص٢٧٨

٧ - الدروبي، موقف الجاحظ، ص٥٧. الجرزي، مكانة العقل، ص ٢٧١

٨- الجاحظ، الحيوان، جـ١، ص١٥٢، جـ ٤، ص١٥٥.

٩- المصدر نفسه، جـ١، ص١٩٠، جـ٤، ص٩٥.

١٠- المصدر نفسه، جـ ٣، ص٢٩٨، جـ٤، ص٢٩٦.

١١- المصدر نفسه، جـ٤، ص٣١٩، جـ٧، ص٢١٠، ٢٢٠.

١٢- المصدر نفسه، جـ ٧، ص٢٢٦.

أشار له الجاحظ ونبه عليه[1] حين قال: "**فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة، لتعرف مواضع اليقين والحالات الموجبة له**"[2] والمنحى النقدي عند الجاحظ يتمثل في نزعته إلى الشك بحيث لا يسلم بأي أمر أو خبر إلا بعد أن يمحصه ويختبر مدى صحته، وهو القائل: "**أجعل الشك طريقا إلى اليقين**"[3]. فيرى الجاحظ أن درجات العلم ثلاثة هي الشك فالظن فالعلم. أول العلم بالأمور الشك فإذا ظهرت بعض الأدلة زال الشك وحل مكانة الظن، فإذا قويت الأدلة زال الظن وحل العلم اليقيني. وقد ردد الجاحظ هذه المراتب في عدة أماكن من كتبه مثل الحيوان وبعض الرسائل[4].

أكد الجاحظ أن الكثير من مصادر التاريخ ورواياته أتت من مصادر غير موثوقة سواء كانت للتاريخ للعرب أم الحضارات الأخرى، فوقف الجاحظ معتذراً عما أصاب التراث المنقول إلى العربية من مشوهات أفضت إلى اختلاله واستغلاقه[5]، حتى جاءت كتبه "**مختلفةً منقوصةً مظلومةً متغيرةً**"[6]. مؤكداً على تحري الدقة في نقل الروايات بتدعيمها بالأخبار والحقائق المقنعة[7].

حصل الجاحظ على ثقافة يونانية ساعدته على تبلور منهج الشك في وقت مبكر؛ كما يرجع إلى تكوينه العقلي[8] وإلى تأثره بمذهب الاعتزال، حيث استخدم الشك في قبول الرواية أو رفضها، ويتدرج الشك عند الجاحظ في طبقات بين القوة والضعف[9] " **اعلم أن الشك طبقات عند جميعهم**"[10]؛ كان الجاحظ يؤمن بأهمية الشك الذي يؤدي إلى اليقين عن طريق إعمال العقل، فهو يسأل أرباب الحرف ليتأكد من معلومات الكتب.

كما أن من منهج الجاحظ معارضة الروايات بما قد تحويه من مغالطات وتأويلات ويبرر سبب ذلك "**وليس الاعتراض من صفة اللّجاج، وقد يكون الاعتراض محمودا ومذموما ولا يكون**

---

١ - الدروبي، موقف الجاحظ، ص٥٧. عطبة، الشك المنهجي، ص ١٤٨

٢- الجاحظ، الحيوان، جـ ٦، ص٣٥.

٣ - الجاحظ، البغال، مقدمة التحقيق، ص ١٠.

٤ - الجوزي، مكان العقل، ص٢٧٩. انظر: الجاحظ، رسالة المعاش والمعاد، ص ٩٦.

٥ - الدروبي، موقف الجاحظ، ص ٥٤

٦- الجاحظ، الحيوان، جـ١، ص ٨٠.

٧ - الجوزي، مكان العقل، ص٢٨٣

٨ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ١٠٩. عطبة، الشك المنهجي، ص ١٤٣.

٩ - الدروبي، موقف الجاحظ، ص٥٧. عطبة، الشك المنهجي، ص ١٤٥

١٠- الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ٥٣

اللّجاج إلّا مذموما"[1]، ومن أمثلة اعتراضاته على كلام الفرس[2]: "**على أن هذه الأحاديث من أحاديث الفرس، وهم أصحاب نفجٍ وتزيدٍ، ولا سيما في كل شيءٍ مما يدخل في باب العصبية، ويزيد في أقدار الأكاسرة**"[3]، وهذا مثال بسيط على الكثير من الأدلة التي ساقها الجاحظ في هذا المضمار في اعتراضاته على الثقافات الأخرى[4].

لعب الجاحظ دورا في نقد ما شاب الروايات من خرافات، بأسلوب قائم على إزالة الأوهام[5]، فهو معتزلي يميل إلى استخدام العقل في كل أموره[6]. إذ إن الجاحظ نفسه يقول: "**ومما لا أكتبه لك من الأخبار العجيبة التي لا يجسر عليها إلا كل وقاح أخبار...**"[7] ولذلك ما أكثر ما كان يستفتح الأخبار المغلوطة أو الأسطورية بقوله زعم فلان، وزعموا[8]، ثم يعقب بتحليله ونقده "**بعقلٍ راجحٍ، ونظرٍ صائبٍ، وأسلوبٍ سهلٍ عذبٍ متنوعٍ دقيقٍ فكهٍ، يتتبع المعنى ويقلبه على وجوهه المختلفة، ولا يزال يولده حتى لا يترك فيه قولاً لقائل**" [9]. يورد الجاحظ الخبر ثم يعقب عليه مبينا ما فيه من صحة أو خطأ متبعا في ذلك مناهج النقد الدقيقة. مثال ذلك خبر ابن عتيق الذي سبق الإشارة إليه الذي يرى أن الرواة عاجزون عن البرهان على صحته لتعذرهم ذلك[10]، إن هذا الخبر برأي الجاحظ مصنوع، وقد أورد الجاحظ أسباب وضعه بأسلوب نقدي ممنهج[11]. كما طال نقده حتى الصحابة والمحدثون والمفسرون وجماعة المعتزلة والأدباء والشعراء والمترجمون وغيرهم من فئات المجتمع[12].

---

١ - البرصان والعرجان ص ٣١

٢ - الدروبي، موقف الجاحظ، ص٦٣

٣- الجاحظ، الحيوان، جـ ٧، ص١٨٩.

٤ - انظر مثلا: الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص ١٩٠، جـ ٦، ص ٤٨٨، جـ ٧، ص٧٧١. رسالة فخر هاشم، ص ٤٣١.

٥ - النجم، وديعه طه. الجاحظ والنقد الأدبي، حوليات كلية الآداب، الحولية العاشرة، جامعة الكويت: ١٩٨٨م، ص٥٤ (سيشار إليه فيما بعد: النجم، الجاحظ والنقد الأدبي). عزت، فلسفة الأخلاق، ص٢٦

٦ - هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٣

٧- الجاحظ، الحيوان، ج٧، ص٤٩، والنص في الأصل هو: «ومما لا أكتبه لك من الأجناس العجيبة التي لا يجسر عليها إلا كل وقاح أخبار...".

٨- محمد، أمراء البيان، ص ٣٦٥ ـ٣٦٦ . الجوزي، مكان العقل، ص ٢٧١

٩- العوا، عادل. المذاهب الفلسفية، مطبعة ابن حيان، دمشق: ١٩٦٤م، ص١٧٢ (سيشار إليه فيما بعد: العوا، المذاهب الفلسفية).

١٠ - عطية، الشك المنهجي، ص ١٥٤

١١ - الجاحظ، البغال، مقدمة التحقيق، ص ١٠

١٢ - الجوزي، مكان العقل، ص٢٨٤

وانتقد الجاحظ تقلب الرواة، فقد صور هذا التقلب في الأذواق لدى الرواة أنفسهم فقال:"وقد أدركت رواة المسجديين والمربديين: ومن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الأعراب ونسيب الأعراب والأرجاز الأعرابية القصار وأشعار اليهود والأشعار المصنفة، فإنهم كانوا لا يعدونه من الرواة. ثم استبردوا ذلك كله، ووقعوا على قصار الأحاديث والقصائد والفقر والنتف من كل شيء. ولقد شهدتهم وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب العباس بن الأحنف، فما هو إلا أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب فصار زهدهم في نسيب العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب، ثم رأيتهم منذ سنيات وما يروي عندهم نسيب الأعراب إلا حدث السن قد ابتدأ في طلب الشعر أو فتياني متغزل "[1].

كما انتقد الجاحظ قلة عناية الأعاجم بحفظ وتخليد تواريخهم[2]، يقول: "فأما الأمم البائدة من العجم، مثل كنعان ويونان وأشباه ذلك، فكثيرٌ، ولكن العجم ليس لها عناية بحفظ شأن الأموات ولا الأحياء"[3]. ويؤكد في موضعٍ آخر أن تقييد المآثر "لم يكن من عادة العجم"[4]، ويعني أن العجم لم تساير العرب في تسجيل مآثرها بالشعر الذي يخلدها[5] "يبقى بقاء الدهر، ويلوح ما لاح نجمٌ، وينشد به ما أهل بالحج، وما هبت الصبا، وما كان للزيت عاصرٌ"[6]. فلم يجد في ما ترجم في زمانهم شعراً يخلد مآثرهم، إذ أن النماذج الملحمية التي تخلد المآثر والبطولات اليونانية نقلت في زمان متأخر[7].

ومما سبق يتضح أن الجاحظ لم يكن مؤرخاً ولكنه قدم مادة تاريخية قلما نجدها في كتب التاريخ الأخرى[8]. وأغنى كتبه بمادة تاريخية سجلها عن الأحداث في عصره أو العصور التي سبقته "سجل في العديد من كتبه ورسائله ملاحظات ذكية وقيمة عن أحداث عصره أو تلك التي سبقت عصره. وهذه الملاحظات فيها دلالات تاريخية ذات أهمية كبيرة بالنسبة للمؤرخ المتمعن"[9] إذ كتب

---

١ - الجاحظ، البيان والتبين، جـ٣، ص٣٢٣.

٢ - الدروبي، موقف الجاحظ، ص٦٨

٣- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص١٨٨.

٤ - الجاحظ، رسالة في مناقب الترك، ص ٤٨٢.

٥ - الدروبي، موقف الجاحظ، ص٦٩

٦- الجاحظ، رسالة في مناقب الترك، ص ٤٨٢.

٧ - الدروبي، موقف الجاحظ، ص ٦٩.

٨ - أشارت هياجنة في رسالتها أن الجاحظ كان متساهلا في إسناده، فبلغ مجموع السند عنده حوالي ٢٤٩ من مجمل الروايات التي جمعتها والتي تبلغ ٤٥٥ والسبب ليس تساهلاً من الجاحظ بقدر ما هو طبيعة العصر الذي لم يكن قد ظهر هذا النوع من النهج في السند، وكذلك لم تكن هناك حاجة، إضافة إلى أن الجاحظ لم يكن مؤرخاً بمعنى الكلمة الصحيح حتى نطالبه بموضوع السند. انظر: هياجنة، الجاحظ مؤرخاً، ص ٨٠.

٩- فوزي، فاروق عمر. الجاحظ مؤرخا(ملاحظات نقدية حول معالجة الجاحظ للتاريخين الأموي والعباسي)، مجلة كلية الآداب، العدد ٢٩، جامعة بغداد: ١٩٨٠م، ص٤٢٢ (سيشار إليه فيما بعد: فوزي، الجاحظ مؤرخاً).

الجاحظ على سبيل المثال لا للحصر في الألوهية والخلق والنبوة، والإنسان ومشكلاته الاجتماعية والأخلاقية والجمالية والدينية والنفسية وغيرها وأضفى عليها من شخصيته وأسلوبه رونقاً وألقاً خاصًّا، ووصل إلى نتائج لم يسبقه إليها أحد، كما أن استنتاجاته طبعها بأسلوبه وطريقته ومنهجه، أما الروايات التاريخية التي كتبها فهي مادة لا يمكن للمؤرخ إلا الوقوف عليها لما لها من أهمية.

تضمنت رسائل الجاحظ مواضيع عديدة، نذكر منها المواضيع العقائدية، والدينية، والسياسية والتاريخية والاجتماعية، والعادات والتصرفات، والمناقب والمثالب، والجماعات (العرب، والموالي، والعجم)[١]. كذلك تناول فيها شرح قضية انتشار العناصر التركية في عهد المعتصم، وانتشار القيان وغيرها من فئات المجتمع[٢].

من يقرأ الجاحظ قراءة متجزئة وغير تاريخية، يرى فيه كاتباً متقلباً في أفكاره السياسية. فربما اكتشف أنه رافضي مرة[٣] " **إذا المرجي سرك أن تراه ... يموت بدائه من قبل موته...فجدد عنده ذكرى علي ... وصل على النبي وأهل بيته**"[٤]، وربما استنتج في أخرى أنه أموي[٥] "**قالوا: ومما نفخر به وليس لبني هاشم مثله أن منا رجلاً ولي أربعين سنة منها عشرون سنة خليفة، وهو معاوية بن أبي سفيان. ولنا أربعة أخوة خلفاء: الوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك. وليس لكم إلا ثلاثة: محمد وعبد الله وأبو إسحق، أولاد هارون** "[٦]، وقد يرسخ للقارئ أنه عباسي الميل " **وذلك أنا لا نعرف في جميع مملكة العرب وفي جميع مملكة العجم وفي جميع الأقاليم السبعة ملكاً واحداً ملكه من نصاب واحد وفي مغرس رسالة إلا من بني هاشم فإن ملكهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم والعم وارث والعم أب**"[٧]. فالجاحظ في تناوله لأي جماعة أو فرقة أو طائفة فإنه يتبناها

١ - النجم، الجاحظ، ص ١٠٣

٢- عبد الغني، جلال. الجاحظ، دار الأمين، جامعة حيفا: ١٩٨٦م، ص ٤ (سيشار إليه فيما بعد: عبد الغني، الجاحظ).

٣ - نوري، الجاحظ، ص ٢

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٢٨

٥ - نوري، الجاحظ، ص ٢

٦- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٤٣

٧- الجاحظ، رسالة في الأوطان والبلدان، ص ١٠٧

ويتبنى أفكارها[1]، بهدف تحري الصدق والأمانة فيما ينقل حتى لا يعاب عليه، كما يهدف إلى إفهام الناس أنه مثلما يستطيع أن يعلو من قدر تلك الفرقة أيضا يستطيع أن يهدمها[2].

يرى الجاحظ أن الرواية التاريخية تكون غاية في الأهمية وما من سبيل لحفظها أفضل من التدوين[3] وفي ذلك يقول: "**الكتب أبلغ في تقييد المآثر من البناء والشعر**"[4]، فهو يعتبر أن الروايات وما بها من ماده تاريخية وما تحويه من التراث الفكري أقدر على البقاء والصمود من التراث المادي الذي يتعرض بسبب انقلاب الدول وتبدل الممالك إلى العبث والتدمير والهدم من المتسلطين الجدد الذين لا يألون وسعاً في سبيل طمس ما يقدرون على طمسه من المعالم الحضارية التي تشهد للدول التي انقلبوا عليها[5].

وكتابات أبي عثمان بتنوعها تعد مصادر تاريخية خاصة لتاريخ الفرق والحركات والثورات التي ظهرت وعاصرها، فقد كتب عن الترك بوصفهم ظاهرةً من ظواهر عصره برسالة سماها: " مناقب الترك"، يبين فيها مناقبهم وما يفتخرون به، ولكنه لم يبالغ في مدحهم وتقريظهم خوفاً من تسيدهم، بل ذهب أبعد من ذلك عندما أبان أنهم غير أهل حضارة فقال: " **الترك أصحاب عمد وسكان فياف وأرباب مواش، وهم أعراب العجم كما أن هذيلا أكراد العرب. فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات، والطب والفلاحة والهندسة؛ ولا غرس ولا بنيان، ولا شق أنهار، ولا جباية غلات، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل، ومقارعة الأبطال** "[6]. وكان يهدف من ذلك إلى أن يعيش الجميع في سلم، خاصة بعد الدعوات التي بدأت تظهر والتي تقوم على تفضيل طائفة على الأخرى. ولم يكن حديث الجاحظ عن الترك حبا لهم كما فهم بعض الكتاب وإنما بقصد إزالة الشحنات من قبل الناس ضد الترك. ولم يكن أيضا يسعى من وراء ذلك إلى التكسب من قبل الخليفة المعتصم الذي كانت أمة تركية.

كما تناول الشعوبية للدفاع عن العروبة والإسلام والذود عن حياضهما بكل ما أوتي من ملكاتٍ ومواهب إبداعيةٍ، وبراعة في النقاش والجدال، وهو وإن لم يفرد كتاباً خاصا بالمضمون والعنوان لهذا الغرض فإننا نجد ذلك في جل كتبه، فيخصص الجزء الثالث من

١- فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٢١

٢ - كتابجي، زكريا. الترك في مؤلفات الجاحظ، دار الثقافة، بيروت: ١٩٧٢م، ص ٨٩ (سيشار إليه فيما بعد: كتابجي).

٣ - الدروبي، موقف الجاحظ، ص ٤٥

٤- الجاحظ، الحيوان، جـ١، ص٧٥.

٥- الدروبي، موقف الجاحظ، ص ٤٧

٦- الجاحظ، رسالة في مناقب الترك، ص٤٧٣

كتاب البيان والتبيين في الرد على مزاعم الشعوبية" وقد طعنت الشعوبية على أخذ العرب في خطبها المخصرة والقناة والقضيب، والاتكاء والاعتماد على القوس، والخد في الأرض، والإشارة بالقضيب... " [1]، كما تناولها أيضا في كتاب الحيوان " فإن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأي الشعوبية والتمادي فيه "[2]، ورسالة النابتة "ثم قرنوا بذلك العصبية التي هلك بها عالمٌ بعد عالم، والحمية التي لا تبقي ديناً إلا أفسدته، ولا دنيا إلا أهلكتها، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية، وما قد صار إليه الموالي من الفخر على العجم والعرب "[3]، ورسالة فضل السودان على البيضان " وقد قال الرسول: بعثت إلى الأحمر والأسود ومعنى ذلك أنه بعث إلى السودان"[4]، ورسالة الترك وعامة جند الخلافة.

وعالج الجاحظ موضوعات متعددة في كتاباته حسب ظروف المجتمع، فكتب رسائل سياسية ذات ميل تاريخي مثل رسالة المعاش والمعاد التي وجهها إلى أحد أولي الأمر، وهو قاضي القضاة محمد بن أحمد بن أبي دؤاد الذي أشرف على الولاة والقضاة في الدولة العباسية بعد والده[5].

دعم الجاحظ فرضياته في موضوع الإمامة في رسالتيه العثمانية والحكمين باستدلالات تاريخية، بحيث يدفعهم للإقرار بفضله وتقديمه "والإمام يفرض نفسه على الناس بسيرته وأعماله ومواقفه وأقواله، بحيث يدفعهم للإقرار بفضله وتقديمه على نحو ما قدم عمرو بن عبيد عند المعتزلة، ومرداس بن أدية عند الخوارج "[6]. ولا يفرضها بنسب ولا بالدعوة إلى نفسه، فيعرف الناس فضله ويقدمونه على من سواه. وفي هذه الرسائل يظهر تأثر الجاحظ بالصراعات السياسية والفكرية في عصره. فجاءت رسالته العباسية لإثبات حق العباسيين بالسلطة، تجاه معارضيهم الذين عبّر عن آرائهم ودحضها في رسائله: الحكمين والعثمانية والنابتة[7].

وتناول الجاحظ بمنظور تاريخي الصراع القبلي المتمثل في المنافسة القديمة بين بطنين من بطون قريش على الحكم هما عبد شمس وهاشم. وتكمن أهمية ما أورده الجاحظ من هذا

١- الجاحظ، البيان والتبيين جـ ١، ص ٣٠٤

٢- الجاحظ، الحيوان، جـ ٧، ص٦١٠

٣- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٢.

٤- لاحظ النعرة الشعوبية في تفسير قول النبي ص "بعثت إلى الأحمر والأسود". إن السود هم أصحاب الدعوة بنظر هؤلاء وهم المتقدمون على العرب. الجاحظ، رسالة فخر السودان على البيضان، ص ٥٤٨

٥ - الدروبي، سمير محمود ومحمد محمود. رسالة جديدة للجاحظ في مدح آل دؤاد، المجلد الثاني عشر، العدد ٢، مؤتة للدراسات والبحوث، جامعة آل البيت: ١٩٩٧م، ص ٢٠٤ (سيشار إليه فيما بعد: الدروبي، رسالة في مدح آل دؤاد).

٦- الجاحظ، العثمانية، ص ٤٠٤

٧- الجاحظ، رسالة العباسية، ص ٤٧٣. تم مناقشة الرسائل الثلاث في المقدمة.

الصراع في الروايات والأحداث المصاحبة له، ومن هذه الروايات " أن أشرف خصال قريش في الجاهلية: اللواء والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابة، وهذه الخصال مقسومة في الجاهلية لبني هاشم وعبد الدار وعبد العزى دون بني عبد شمس"[١] إضافة إلى ذلك فإن مادة الجاحظ التاريخية في هذه الرسالة كثيرة ومتعددة، ومن ذلك أيضا " وكان النبي صلى الله عليه وسلم طرد معاوية بن المغيرة هذا من المدينة وأجله ثلاثا فحيره الله ولم يزل يتردد في ضلاله حتى بعث في أثره عليا وعمارا فقتلاه "[٢]

وقد اهتم الجاحظ بتاريخ العرب وأمجادهم ولم ينسى فضلهم على باقي الأمم، فقد أرخ لهم فيرى أنهم أفخر الأمم، وأرفعها وأحفظها لأيامها، وينسب ذلك إلى طبيعة بلادهم، إذ "كانوا سكان فيافٍ وتربية العراء، لا يعرفون العمق ولا اللثق، ولا البخار ولا الغلظ ولا العفن ولا التخم، أذهان حداد، ونفوس منكرة، فحين حملوا حدهم ووجهوا قولهم لقول الشعر وبلاغة المنطق، وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام، بعد قيافة الأثر وحفظ النسب، والاهتداء بالنجوم، والاستدلال بالآفاق، وتعرف الأنواء، والبصر بالخيل وآلة الحرب، والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس، وإحكام شأن المثالب والمناقب، بلغوا في ذلك الغاية، وحازوا كل أمنية. وببعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر، وهممهم أرفع من جميع الأمم وأفخر، ولأيامهم أحفظ وأذكر"[٣].

وتناول الجاحظ في كتاباته السودان وأعني بهم أصحاب البشرة السوداء، ولا علاقة لاسم الرسالة ببشرة الجاحظ، فقد ألف الجاحظ رسائل أخرى مثل رسالة مفاخر قحطان وأيضا مفاخر عدنان[٤]، فقد يكون الدافع في كتابة رسالة السودان سياسياً[٥]، أما جواد علي فيذكر سبب تأليف الجاحظ لهذه الرسالة " أن نزاعًا كان قد دب بين السودان والعرب في الإسلام؛ بسبب النظرة السلبية التي أخذ الفاتحون ينظرون بها إليهم، فصاروا يترفعون عنهم ولا يخالطونهم، وهذا أغاظهم، وحملهم على نبش الماضي، والإتيان بالأخبار وبالأشعار عن دور الحبش في جزيرة العرب قبل الإسلام"[٦]، ويشير الجاحظ إلى المناطق الواسعة التي سيطر عليها السودان من جزيرة العرب قبل الإسلام "بلاد العرب من لدن الحبشة إلى مكة"[٧]. أما عن مفاخرهم فذكر الجاحظ "والناس مجمعون على أنه

١- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص٤٠٩

٢- الجاحظ، رسالة فضل هشام، ص٤١٠

٣- الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٤٨١

٤ - الدروبي، أثار الجاحظ، ص ١٠٣-١٠٤

٥ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٩٦

٦- علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط ٢، جامعة بغداد، بغداد: ١٩٩٣م، مجـ ٧، ص٣١١- ٣١٢ (سيشار إليه فيما بعد: علي، المفصل في تاريخ العرب).

٧- الجاحظ، رسالة مفاخر السودان على البيضان، ص ٥٢٩

ليس في الأرض أمة السخاء فيها أعم، وعليها أغلب من الزنج. وهاتان الخلتان لم توجدا قط إلا في كريم. وهي أطبع الخلق على الرقص الموقع الموزون، والضرب بالطبل على الإيقاع الموزون، من غير تأديب ولا تعليم.وليس في الأرض أحسن حلوقا منهم. وليس في الأرض لغة أخف على اللسان من لغتهم، ولا في الأرض قوم أذرب ألسنة، ولا أقل تمطيطا منهم"[1]

أما الموالي فقد تناولهم الجاحظ في رسالته مناقب الترك بقوله: " **الموالي أقرب إلى العرب في كثير من المعاني؛ لأنهم عرب في المدعى، وفي العاقلة، وفي الوارثة. وهذا تأويل لقوله: مولى القوم منهم، ومولى القوم من أنفسهم. والولاء لحمة كلحمة النسب"**[2]. وتبرز أهمية هذه الروايات تاريخيا في نقاط متعددة من أهمها التعرف إلى العلاقة التي كانت سائدة بين العرب والموالي، ونظرة العرب إليهم، وكذلك أنواع الموالي الذين ظهروا في فترة الدولة العباسية فترة حياة الجاحظ، ولعل روايات الجاحظ التاريخية تنبع منها الحس التاريخي أكثر منها رواية عابرة من ذلك مثلاً **"ويتذاكرون إكرام رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة مولاه، حين عقد له يوم مؤتة على جلة بني هاشم، وجعله أمير كل بلدة يطؤها"**[3].

كما تطرق في رواياته إلى الخوارج[4] ووصفهم بالمروق، ونبه الدولة في مواضع متعددة إلى خطرهم **"على أنا لا نعرف لبعض ما قال وجها، لأنك لا تعرف فقيها من أهل الجماعة لا يستحل قتال الخوارج "**[5]. لكنه يظهر إعجابه بشعرائهم ونقل الكثير من أخبارهم. كما تكلم عن خطبائهم[6]، وعن علمائهم ونسائهم[7] **"وقال الحجاج لامرأة من الخوارج: والله لأعدنكم عدا، ولأحصدنكم حصدا. قالت: أنت تحصد، والله يزرع، فانظر أين قدرة المخلوق من قدرة الخالق"**[8]

١- الجاحظ، رسالة مفاخر السودان على البيضان، ص ٥٣٩.

٢- الجاحظ، رسالة في مناقب الترك، ص ٤٨٨.

٣- المصدر نفسه، ص ٤٨٤.

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٥١٢. فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤٢٢.

٥- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٨٨.

٦- المصدر نفسه، جـ ١، ص ٢٧٦.

٧- المصدر نفسه، جـ ١، ص ٢٩١.

٨- المصدر نفسه، جـ ٢، ص ٢١٦.

كما تحدث عن النظام الاداري في عهد الدولة الساسانية والدولة العباسية، وأبدى إعجابه بنظام البريد الذي استخدم للربط بين أراضي الدولة العباسية، فقال: "**وكانت البرد منظمة إلى كسرى، من أقصى بلاد اليمن إلى بابه، أيام وهرز، وأيام قتل مسروق عظيم الحبشة**"[1].

تناول الجاحظ المانوية[2] والتي عرفت(بالزندقة) حيث نشرت كتب المانوية بأوراق صقيلة وإخراج بديع لكي تجتذب الناس إلى قراءتها [3]، ويعلق الجاحظ على هذه الكتب بقوله "**ليس في كتبهم مثل سائر، ولا خبر طريف، ولا صنعة أدب، ولا حكمة غريبة، ولا فلسفة، ولا مسألة كلامية، ولا تعريف صناعة، ولا استخراج آلة، ولا تعليم فلاحة، ولا تدبير حرب، ولا مقارعة عن دين، ولا مناضلة عن نحلة، وجل ما فيها ذكر النور والظلمة، وتناكح الشياطين، وتسافد العفاريت...**"[4]. والمعروف عن المانوية أنها أخطر حركة تعرضت للإسلام وهددته وحاولت هدم المجتمع العربي الإسلامي من الداخل ولذلك فإنها والشعوبية صنوان مترابطان.

وأخيراً إذا جاز لنا اعتبار الجاحظ مؤرخاً فإننا نشير أنه في أحيانٍ عديدة تغلب عليه ميوله فتأتي رواياته مهزوزة في معالجة الأحداث بداع من ميوله السياسية، وهذا ما حدث عندما عالج التاريخ الأموي، بسبب موقف العباسيين من الأمويين، الأمر الذي أجبر الجاحظ أن يتوافق ميوله مع ميول العباسيين [5].

١- الجاحظ، البغال، ص٦٦.

٢- المانية: ويقال: المنانية؛ والمنائية؛ والمانوية، هم الزنادقة أصحاب ماني بن فاتك الذي كان يقول: " إن مبدأ العالم من كونين أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنهما في صراع مستمر لا ينتهي إلا بانتهاء الدنيا". ابن النديم. الفهرست، ص٤٠٢. وما يليها، المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ١٠٨.

٣- فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤٢٨

٤- الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص٣٤

٥- فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤٢٧